دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 32، العدد 1، 2005

المياه في شعر تَميم بن أُبي بن مقْبِل

قراءة تأويلية

*ليلى توفيق العمري**

ملخص

يدرس البحث دور المياه في معالجة الأزمات الثلاث لابن مقْبِل، وهي: بعده عن الحياة الجاهلية، ومفارقته دهماء الزوجة الحبيبة، وشيخوخته، معالجة معنوية تخفّف عنه أحزانه وتريح نفسه، وتساعده في النزوع إلى الماضي بكل ما فيه نزوعاً ما زال يعيش في ذاكرته بعد إسلامه. ويتّبع في دراسته له المنهج التأويلي الذي يفسر المياه في الأبيات بدلالتها على الحياة والحيوية والنشاط، تفسيراً ساعد الباحث في الوصول إلى الغرض الذي أراده الشاعر من توفير عنصر المياه في قصائده، والذي ضمنه هذا العنصر مرتبطاً بدلالته تلك ارتباطاً مكّنياً.

وتبنى الباحث في دراسته لهذا الدور – وعليه أقام أقسام بحثه – نظرة الشاعر في معالجة أزماته نظرةً انتهت به في بعض القصائد إلى حلول بسيطة لها تضمنت الدلالات السابقة، وانتهت به في بعضها الآخر إلى حلول فلسفية لها أظهرت وعي الشاعر لحجم قضاياه، وأسلوب معالجته لها، وفهمه للحياة فهماً يتجاوز نفسه إلى الآخرين.

وقد وفّر الشاعر في الحديث عن مياهه من أسلوبي البيان والبديع كالكناية والمقابلة، ومن العناصر الموضوعية في الأبيات ما يعينه على الوصول إلى غايته، التي أرادها من توفير المياه في قصائده في التعبير عن أزماته، وسعيه لمحاولة حلّها حلا معنوياً.

الكلمات الدالة: المياه، ابن مقْبِل، تَميم، دهماء، الحياة، الحيوية، النشاط، الجاهلية.

المقدمـــة

إن الحديث عن "المياه في شعر ابن مقبل" يرتبط – بالدرجة الأولى – بأشعاره التي زودنا بها ديوانه، فكان المصدر الأساسي الذي اعتمد عليه هذا البحث، اعتماداً جعلني ألجأ إليه وحده في رسم معالمه من ناحية، وأدرك قلّة الأخبار التي رفدتني بها مصادرنا القديمة التي تحدثت عن حياة ابن مقبل(1) من ناحية ثانية، ومن ثَم ندرتها في هذا الباب من ناحية ثالثة. ولا تعليل لذلك عند علمائنا الأوائل، ويبدو أن عدم مشاركة ابن مقبل في الأحداث السياسية التي كانت سائدة أول عهده بالإسلام وفي عهد الأمويين(2)، مشاركة تركت أثراً في شعره وطبعته بطوابع خاصة السبب وراء ذلك(3)، وفي هذا دليل يلقي الضوء على حياة ابن مقبل، وطبيعة هذه الحياة، كما أفصحت عن ذلك قصائده التي يزخر بها ديوانه؛ فهي تشير إلى أنه كان يعيش مع قومه حياة البادية، يتنقلون بين رياضها وقفارها سعياً وراء الماء والكلأ(4)، ولم يؤثر عنه أنه غادرها إلى حواضر الأمصار إلاّ لأسباب طارئة تنتهي بانتهاء السبب الطارىء(5).

ولست بصدد البحث في حياة ابن مقبل بحثاً تفصيلياً(6)؛ لأنه إنما يعنيني منها أمران فقط، الأول منهما: أن بقاءه في رحاب البادية مع قومه، ومشاهدته لهم وهم يتنقلون من مكان لآخر، ويقيمون حول الآبار، وعند الغدران متتبعين مساقط الغيث ومنابت الكلأ، أفاده في بناء قصائد كثيرة تسير وفق التقاليد الفنية للقصيدة العربية، شأنه في ذلك شأن شعراء الجاهلية عامة(7)، بناء أفاده في التعبير عن الموضوع الذي يدور في ذهنه، والوصول إلى الغرض الذي يرمي إليه في موضوعه مستخدماً الكناية مرة، والمقابلة مرة ثانية، والرمز مرة ثالثة. ولست مغالياً إذا قلت: إنه لا يمكن لابن مقبل أن يتأتى إلى غرضه في القصيدة بأيسر الطرق، لولا تمثّله – في شعره – لحركة قومه في تنقّلهم بين الأماكن زمان الصيف والقيظ والربيع، خاصة أماكن المياه التي تمتلكها قبيلته، التي

---

* قسم اللغة العربية، كلية العلوم والآداب، الجامعة الهاشمية، الزرقاء، الأردن. تاريخ استلام البحث 2004/4/27، وتاريخ قبوله 2004/7/21.

ملأ ابن مقبل بها ديوانه؛ فقد تبين لي من دراسة قصائده، ومن الاطلاع على كتب البلدان أن بني العجلان يملكون مياهاً كثيرة(8)، كانت مادة خصبة لشاعرنا استطاع من خلالها الوصول إلى غرضه.

وأما الأمر الثاني فهو حياة ابن مقبل في الجاهلية والإسلام، ولا أعني بذلك مرحلة عبوره من الجاهلية إلى الإسلام مع ما يكتنف هذا العبور من مؤثرات ساعدت عليه(9)؛ وإنما أعني درجة تقبله لتعاليم الإسلام نظراً إلى ما يربطه بالحياة الجاهلية، ارتباطاً ظهر أثره في موضوعات شعره وفي غرضه فيها في ظل الظروف الجديدة المحيطة به.

وحسبي أن ما عزي إلى ابن مقبل أنه ليس في حياته "حادثة كبيرة غيرت مجراها، أو تركت فيه شيئاً خاصاً أثّر في شعره وطبعه بطابع خاص"(10)، إنما فهمت منه عدم مشاركته في الأحداث السياسية التي حدثت في عصره – كما ذكرت - أو عدم وجود امرأة في حياته تكون قد خذلته وتخلّت عنه، فيتحول اتجاهه في الشعر عندئذٍ - على سبيل المثال – من الغزل إلى الزهد، مع ما يترتب على ذلك من تغيير في مسار حياته كما عرف عن بعض شعرائنا القدامى. ولكنني أخالف غيري في الرأي في الحكم على حياته وشعره بذلك إذا استثنيت منهما الحادثة الثانية؛ لأنني وجدت أن في حياة ابن مقبل حادثتين إن صح التعبير، أو أزمتين بتعبير أدقّ تركتا أثراً في شعره خاصة، وفي حياته عامة، هما: حبه لدهماء(11) وارتباطه بها ارتباطاً يشكّل جزءاً من ارتباطه بالحياة الجاهلية؛ ذلك "ان حادثة تفريق الإسلام بين ابن مقبل والدهماء تعد من أعمق الحوادث في حياته، ومن أكثر الحوادث تأثيراً في شعره"(12)، وهرمه وشيخوخته ومن ثَم حنينه إلى حياة الشباب، الذي هو جزء من حنينه إلى الحياة الجاهلية أيضاً. وبذلك يكون ابن مقبل قد أفاد من بقائه في البادية بقاء جعل من البيئة المحيطة به أدوات يعمي بها على حياته في الجاهلية والإسلام في ضوء هاتين الأزمتين، وهو أمر تكشّف لي من إجالة النظر في قصائد ديوانه، ورد أجزاء القصيدة الواحدة بعضها على بعض، وربط المقدمات بالنهايات – أو العكس – ومقارنتها بغيرها؛ إذ وجدت فيها خيوطاً مشتركة تتركّز في الكثير منها حول هاتين الأزمتين، موصولتين بالأزمة الكبيرة وهي بعده عن الحياة الجاهلية، بالتلميح دون التصريح إذا ذهبنا في تفسير شعره تفسيراً تأويلياً جديداً لم يسبق أن درسه أحد على هذا النحو.

والهدف من هذه الدراسة التأويلية أن نقف على غرض ابن مقبل في استعانته – في تكوين موضوعات شعره – بأماكن المياه، استعانة لفتت نظري في ورودها في أغلب قصائد ديوانه، بحيث جعلتني أذهب إلى القول إن ابن مقبل لم يأتِ بها على هذا النحو من الكثرة إتياناً عبثاً أو عفوياً، وإنما أتى بها عن قصد لحاجة في نفسه ترتّبت على اشتداد أزماته الثلاث عليه بدخوله في الإسلام، واتّكأت على معرفته بدلالة المياه على الحياة معرفة قادته إلى اشتقاق دلالات أخرى من هذه الدلالة تمثّلت في معنى النشاط والحيوية، ولكن حديث الشاعر عن المياه ودلالتها لم يكن حديثاً مباشراً، وإنما ذكر أماكنها وأرادها هي مرتبطة بدلالتها ارتباطاً مكّنياً، وهو أمر توصلنا إليه من النظر في جميع المواضع التي ذكر ابن مقبل أماكن المياه فيها في شعره، نظرة واحدة أوصلتني إلى هذه النتيجة، فأخذت حينئذٍ في تفسيرها تفسيراً جديداً يحتمل هذا التأويل وما يمكن أن يشتق منه، ولكن تفسير المياه على هذا النحو لا يمكن أن يحيا مستقلاً بمعزل عن بقية العناصر في القصيدة الواحدة، وإنما ينبغي أن تكون هذه العناصر الوعاء الذي يفرغ ابن مقبل فيه مياهه، ويستوعب أفكاره وفلسفته في الحياة، بحيث تحتمل هي الأخرى هذا التفسير التأويلي، لينفذ من ذلك كله إلى تلك الحاجة وهي التعبير عن أزماته، والسعي لحلّها والتخفيف من وطأتها عليه، سعياً معنوياً يناسب تقلّباته النفسية بعد أن تعذّر عليه حلّها حلا حقيقياً.

وقد سخّر ابن مقبل في سبيل ذلك موضوعات قصائده في الغزل والوصف والفخر والرثاء، وجعل الحديث عن هرمه وشيخوخته وحنينه إلى حياة الشباب، وحبه لدهماء وحنينه إليها حنيناً يرتبط بحياته في الجاهلية محور هذه الموضوعات، وفق المنهج الذي اتبعناه في استقراء قصائده؛ إذ كان حنينه إلى الحياة الجاهلية يظهر من التحسر على شبابه وعزه الذي مضى له فيها وخاصة حياته مع دهماء؛ وعليه فإن هذا البحث يدرس دور المياه في معالجة أزمات ابن مقبل التي هي غرضه في قصائده، ويتّبع في دراسته له منهجاً يقسمها قسمين: يدرس القسم الأول منه دور المياه في معالجة أزمات الشاعر في قصائد ذات حلول بسيطة وذات موضوعات متنوعة، ويدرس القسم الثاني منه دور المياه في معالجة أزمات الشاعر في قصائد ذات حلول فلسفية، وذلك في شقّين، أما الشقّ الأول فيدرس هذا الدور في قصائد ذات

موضوعات متنوعة، ويدرسه الشقّ الثاني في قصائد ذات موضوع واحد ولها خصوصية معينة؛ وذلك بالاستعانة بالأدوات الفنية التي استخدمها الشاعر في ظل الأجواء المحيطة به، دون أن يتقيد البحث في هذه الدراسة بتسلسل الأبيات في القصيدة الواحدة، تقيداً رفضه منهجنا التأويلي الذي اتّبعناه فيه، والذي فرض علينا مراعاة نفسية الشاعر المضطربة بين التشبث بالماضي والاعتراف بالحاضر، ويقدم في دراسته الغرض الثاني على الأول – مع أهمية هذا الأخير عليه – لأنه يقود إليه، وهو الخطوة الأولى فيه.

القسم الأول: دور المياه في معالجة أزمات الشاعر في قصائد ذات حلول بسيطة:

أ – هرمه وشيخوخته وحنينه إلى حياة الشباب:

لم تكن شكوى ابن مقبل في شيخوخته من الشيب شكوى جديدة عليه لتقدم السن به، وإنما ٱُثر عنه في شعره أنه كان يشكو منذ شبابه من الشيب، ويحس بوقع إقباله عليه واستيائه منه، إحساساً دفعه إلى تبرير شيبه أمام عاذلته، رغم إقراره بأن البياض وخَطَ رأسه؛ فيقول(13):

وتَنَكرتْ شَيبي، فَقُلْتُ لَها:
لَيس المشِيب بِناقِصٍ عمرِي
سِيان شَيِبي والشباب إذا
ما كُنْتُ مِن أَجِلي علَى قَدرِ
ما شِبتُ مِن كِبرٍ، ولَكِني امرؤٌ
قارعتُ حد نَواجِذِ الدهرِ
فَرأيتُها عصلاً موقحةً
عزتْ، فما تُسطاع بالكَسرِ
فَلِذاك صِرتُ مع الشبيبةِ نازِلاً
في غَيرِ منْزِلَتِي مِن العمرِ

وقد لفتت أبيات ابن مقبل في الشكوى من الشيب علماءنا القدامى؛ فقدم أبو هلال العسكري لها بقوله(14): "وأول من ذكر أنه شاب من غير كِبر ابن مقبل في قوله..."، وقدم البكري للبيت الأول والثاني منها بقوله(15): "ومن جيد ما ورد في هذا المعنى (أي الاعتذار للشيب والرضا به) قول ابن مقبل...".

ويبدو أن شكوى شاعرنا من الشيب في هذه المرحلة المبكّرة من عمره، لم تتمكّن منه تمكّناً تصبح فيه أزمة أو قضية تؤرقه في حِلّه وترحاله، وفي لهوه وصباه، ومن ثَمّ تؤثر في موضوعات شعره، وهو وإن تجاوز في وقت فيها الاعتراف بشيبه إلى الرضا به؛ إذ اعتبر شيبه وشبابه سواء، فإن ذلك يعود إلى ظروف نجهلها في حياته جعلته يساوي بينهما إزاء شعوره بحتمية القدر في الحال التي هو عليها من المشيب المبكّر. على أن هذه النظرة العارضة له في مساواته بين الشيب والشباب لم تؤثّر على شعوره العام في التقليل من أثر الشيب على شبابه، ولعلّ السبب في ذلك أن هذه المرحلة ارتبطت بحبه لدهماء(16) ارتباطاً متقِداً، أفقده الإحساس بنفسه أولاً، وبالبيئة المحيطة به ثانياً، ثم جاء شبابه رافداً لحبه فلم يلتفت إلى فِعل الزمان به، أو بالأحرى تجاهل التغيرات التي طرأت عليه منه، والدليل على ذلك أن ديوانه خلا من هذا الشعر الذي يشكو فيه من الشيب في شبابه، باستثناء الأبيات التي قدمنا الحديث عنها.

أما مع تقدم العمر بابن مقبل فقد اختلفت نظرته إلى الشيب باختلاف المتغيرات التي وقعت عليه، فأصبح يراه الهم الذي لا يفارقه، والعقبة التي لا يستطيع التغلّب عليها أو التخلّص منها؛ لأن ابن مقبل فَقَد في هذه المرحلة الدعامات الثلاث(17) التي كان يقف عليها، وكانت تمنحه القوة والثبات أمام هذا العدو الذي غزاه مبكّراً، والتي يهون كل شيء دونها في القيمة عنده، فقد ابتعد عن دهماء رمز صلته بالجاهلية، وأصبح حبه لها باطناً بعد أن كان شائعاً، وكِبر وهرم فتيقّن حينئذٍ أنه لم يعد شاباً يتمتع بحيوية الشباب ونضارتهم، مقراً بأن الشيب الحقيقي إنما يكون مع الكِبر؛ فيقول في ذلك(18):

طَرقَتْ وقَد شَحطَ الفُؤاد عن الصبا
وأتَى المشِيب فَحالَ دون شَبابِي

ويقول معزياً نفسه ومقراً بأن ما حل به هو من فِعل الزمان(19):

لَقَد تَقَوس لَحيبِهِ ولِمتَه
شَيب، وذَاك مِما يحدِثُ الزمن

ويكرر الشاعر الشكوى من الشيب حتى شكّلت له هذه الشكوى هاجساً ظهر أثره في نفسيته وفي شعره معاً، في الحنين إلى أيام الشباب حنيناً يذكّره بحبه لدهماء وبحياة الجاهلية. وفي نزوع الشاعر للوصول إلى هذا الثالوث نزوعاً يرتبط بطبيعة نفسيته، ومحاولة رفع معنوياته رفعاً يقتصر على الذكرى، كان لا بد له من البحث عن وسائل مادية – بعد أن فَقَد الوسائل المعنوية(20) – تعينه على هذا الوصول، فكانت البيئة من حوله المورد المناسب الذي يمده بها، فاختار

منها هذا المورد الحيوي المتمثل في مياه الآبار والغدران التي تمتلكها قبيلته، والتي تراوح في الإقامة عندها أيام الصيف والقيظ والربيع.

ولم يكن اختيار ابن مقبل للمياه اختياراً عبثاً، وإنما كان اختياراً مقصوداً بل مدروساً في عقله الباطني، يضاف إلى ذلك وجود عاملين في حياته كانا قد دفعاه دفعاً مباشراً إلى هذا الاختيار، هما ما أشرنا إليهما قبلاً من أن إقامته في رحاب البادية جعلته يقف على هذا المورد، ويراه بأم عينه من ناحية، ويدرك وفرته في بيئته من ناحية ثانية.

ويكمن السبب في اختيار ابن مقبل للمياه في أنه رأى في الحديث عنها تجديداً لنشاطه، وبعثاً لحيويته، وإحياء لشبابه ولو على سبيل الذكرى، منطلقاً من فلسفة خاصة به، وفلسفة محدودة لايتجاوز محيطها الجغرافي أجواءه الداخلية ونزعاته النفسية، هذه الفلسفة التي فرضتها عليه نفسه المضطربة بين التشبث بالماضي بكل ما فيه، وبين الاعتراف بالواقع الحالي الذي لم يجرؤ على إعلان رفضه له – تتمثل في الحفاظ على الدعامات الثلاث التي كان يقف عليها في مقتبل العمر، حفاظاً باطناً معنوياً يمده بقوة معنوية تساعده على إحياء الماضي في نفسه، والتكيف مع الحاضر في ظل الظروف المستجدة تكيفاً ظاهراً!

ونظرة الشاعر إلى المياه على هذا النحو، أو فلنقل استنتاجنا لنظرته إليها ليست بالنظرة الغريبة على الأمم القديمة أو على العرب القدماء؛ فقد ورد في أساطير العالم القديمة أن الماء أصل الحياة (21)، ولعل في تسمية العرب للمطر بالحيا لإحيائه الأرض(22) هو من هذا القبيل، ذلك "ان تكوين السحاب هو العلّة في الحياة، فهو يؤدي إلى المطر، الذي هو أصل الحياة"(23)، ومثل هذا ورد في القرآن في عدد من الآيات الكريمة من أن الماء أصل الحياة وأنه يحيي الموات(24). ويبدو أن شاعرنا الذي عاش في عصرين عِلم هذا عِلْم العرف من العصر السابق، وعِلْم الاطلاع من العصر اللاحق(25)، أو أن عِلْم العرف رافقه في العصر الجديد، فاستفاد من هذه المعرفة في توظيف المياه في قصائده، توظيفاً يخدم غرضه فيها في إطار الموضوع الذي يطرقه، ذلك انه استمد من دلالة المياه على الحياة دلالة أخرى مشتقّة منها اشتقاقاً وظّفه في تجديد نشاطه، وبعث الحياة في تجاعيد وجهه بعثاً يشعره بنضارة الشباب وحيويتهم، ولذلك نجد ابن مقبل يكثر من ذِكْر أماكن المياه في مواضع متعددة في قصائده ذكراً متعمداً، وهو يذكر أماكنها ويسمي مواضعها إنما يريد من ذلك توفير عنصر المياه لا الحديث عن أماكن المياه، وقد كان ذِكْره لأماكنها متّسقاً مع السياق الذي وردت فيه اتساقاً شكلياً من حيث هي مكان فحسب(26).

وقد اتبع ابن مقبل في التعبير عن حنينه إلى حياة الشباب أساليب عدة، منها أسلوب القصة في الخبر الذي رواه ابن قتيبة، ومن ثَم ياقوت الحموي(27) عن قصيدته الرائية التي ابتدأها متذمراً من شيبه وكِبره مقراً بعجزه وهرمه؛ إذ يقول(28):

يا حر أمسيتُ شَيخاً قَد وهى بصري
والْتاثَ ما دون يومِ الوعِدِ مِن عمرِي
يا حر من يعتَذِر مِن أن يلِم بِهِ
ريب الزمـان فإنـي غَيـر معتَـذِر
يا حر أمسى سواد الرأْسِ خالَطَه
شَيب القَذال اخْتِلاطَ الصفْـو بالكَـدر

ولا يعني إقرار الشاعر بكِبره أنه يعزو إليه ما يعتريه من متغيرات طرأت(29) عليه على مر الزمان؛ يقول ابن قتيبة يوضح ذلك في تعليقه على البيت الثاني(30): "يقول: من قال ضعفي من مرض أو غيره، وليس من الكبر، فإني غير معتذر من الكِبر، ولكني معترف". وإنما يعني أنه إقرار ظاهر يرضي به شكله الخارجي إرضاء لا يستطيع إنكاره بحال من الأحوال، ولكنه يولّد عنده من ناحية أخرى ردة فعل داخلية معاكسة للاتجاه الأول ومناقضة له؛ فالشاعر بعد أن يستوعب بأبيات عشرة(31) الحالة التي صار إليها، يرتد بعقله الباطني إلى الوراء ارتداداً يرفض الاستسلام لعوامل الزمن، وينزع إلى الشباب، متخذاً من الحوار الذي دار بينه وبين سلمى إحدى ابنتي عصر العقَيلي(32) سبيلاً للوصول إلى ذلك، بمقارنة كِبره وهرمه بشباب سلمى وحيويتها، مقارنة تدل على نقص من ناحية، وشوق إلى إكمال هذا النقص من ناحية أخرى. ولعل في تجريح سلمى له واستهزائها من كِبره ما زاد في تقوية هذا الشعور عنده، الأمر الذي دفعه إلى تعويض هذا النقص بأن جعل سلمى تحاوره من "سرح"(33)، و"سرح" منطقة مياه لا شك في أنها تعج بالحياة والحركة، وقد ذكره ابن مقبل في هذا الموضع دون غيره من المنازل والديار ليدل على ذلك النزوع الذي كان يرمي إليه؛ فيقول في ذلك(34):

قالَتْ سلَيمى بِبطْن القاعِ مِن سرحٍ:
لا خَير في العيشِ بعد الشيبِ والكِبرِ
واستَهزَأتْ ترِبها مِني فَقُلْتُ لَها:
ماذا تَعِيبان مِني يا ابنَتَي عصرِ؟

إن شوق الشاعر إلى حياة الشباب، وتعطشه الشديد إلى أيام الصبا وفتوة الشباب هو الذي جعله يسحب على الحاضر ظواهر الماضي، ومنعه من الإقرار بالعجز الكامل عن مواجهة خطوب الدهر، فقد أبقت الحوادث منه بقية ساعدته على الوقوف في وجه الملمات، ومنعته من النظر إلى شيبه وعوره، وأخذت تعيش في نفسه وحاضره عيشة تمنعه من نسيان الماضي؛ فيقول(35):

أبقَى خُطُوب وحاجاتٌ تُضيفُني
وما جنَى الدهر مِن صفْوٍ ومِن كَدرِ
مِثْلَ الحسامِ كَريماً عِنْد خِلِتهِ
لِكُـل إزرةٍ هـذا الدهـ ـرِ ذا إزرِ
يا لَيتَ لي سلْوةً يشْفَى الفُؤاد بِها
مِن بعضِ ما يعتَري قَلْبِي مِن الذكَرِ

فإذا أقنع الشاعر نفسه أنه يعيش حاضره بروح شبابه، وأن القوة التي أبقتها الحوادث فيه، أخذت تسري في أوصاله المهترئة سرياً أمده بأسباب الحيوية والنشاط، كان لا بد له من أن يقدم لأبياته الثلاثة السابقة بأبيات ستة يتحدث فيها عن مغامراته أيام الشباب في سياق الفخر بنفسه؛ فيقول(36):

اني اُقَيد بِالمأْثُورِ راحِلَتي
ولا اُبالِي، ولَو كُنا علَى سفَرِ
لا تأْمن السيفَ، إذْ روحتُها، إبِلي
حتى ترَى نِيبها يضمِزن بِالجِررِ
ولا أقُوم علَى حوضِي فَأمنَعه
بذْلَ اليمِينِ بِسوطِي بادِياً حثُرِي
ولا تَهيبِني المومَاةُ أركبهـا
إذا تَجاوبتِ الأصداء بِالسحرِ
ولا أقوم إلى المولَى فأشْتُمه
ولا يخَدشُه نابِي ولا ظُفُرِي

إن إلحاح الشاعر على نفسه في النزوع إلى أيام الشباب جعله يعكس المقاييس الطبيعية في حياته وشعره، وجعله ينظر إلى نفسه في غير حاضرها وواقعها، ويبدأ بالحديث عن الماضي قبل الحاضر، ويقدم لأبياته بمثل ما قدم من هذا الفخر الشبابي، بل إنه استبق الواقع بأكثر من هذا عندما أكمل القصة التي ابتدأها مع سلمى، والتي تشير في نهايتها إلى شوق الشاعر إلى حياة الشباب، شوقاً جعله يستسقي في "ثاج"(37) ابنتي عصر العقَيلي، فرمز إلى هذا الشوق بطلب السقْي(38)، ورمز إلى حياة الشباب بماء "ثاج" الذي يرتبط بزواجه من إحدى ابنَتَي عصر فيما بعد. ولا شك في أن إلحاح الشاعر في الحنين إلى أيام الشباب – بمقابلة هرمه بشباب سلمى، وطلبه أن يسقَى – هو الذي أوحى إليه أن يجعل مكان هاتين المرأتين في "سرح" مرة، وفي "ثاج" مرة أخرى، مع ما أثمرت العلاقة عنه في "ثاج" من هذا الزواج ما ينفي عنه العجز الجنسي، ويوحي بقدرة على الإنجاب، ومن ثَم يعزز ثقته بحيويته، وشعوره بنشاط الشباب؛ فيقول مقدماً لأبياته السابقة(39):

يا جارتَي علَى ثاجٍ، طَريقُكُما،
سيراً حِثِيثاً، ألما تَعلَما خَبرِي

على أن مثل هذا الاضطراب النفسي لا ينعكس على ترتيب هذه الأبيات فقط، وإنما يصادفنا في قصائد كثيرة لابن مقبل، فهو يظهر علينا بهذا الاضطراب من قلب القصيدة، ثم يرتد إلى أولها، ومن ثم يأتي إلى آخرها، وكأنه يريد بهذه الحركة أن يوزع همه في موضعين، وأن يلتمس الحل لمشكلته في كل موضع منهما، مع إيجاد الحل الأنسب في أحدهما يقف عنده، ويقويه بمدعمات يستند إليها من واقعه. ويريد بها أيضاً أن يبين أن الحركة بين ذهاب وإياب تجديد لقوة الجسم وبعث لنشاطه وحيويته، بعثاً يشعره أنه ما زال يتمتع بصفات الشباب في هذه السن المتقدمة، وبذلك يكون ابن مقبل قد وفّر لأبياته التالية – وصولاً إلى غرضه فيها، ودفاعاً عن منهجه – عنصري المياه والحركة(40)، وعناصر أخرى تتمثّل في الاستعانة ببعض الأساليب البلاغية التي فرضها سياق الحديث الذي يخوض فيه؛ ففي قصيدته النونية يطلع علينا منذ البيت الخامس والعشرين مؤرقاً مهموم النفس لرحيل ليلى عن الديار، وما خلّفه رحيلها عنها من آثار سلبية عليها، فقد تركتها نهباً لِلبلى والخراب بعد أن كانت تعج بالحياة وبحركة الناس فيها، وبعد أن أمضى مع ليلى فيها أياماً كانت لياليها من أجمل الليالي؛ إذ كانت هوى النفس، وأمنية الفؤاد. وحسبي بالشاعر أنه أراد أن يكنّي بذلك كله عن شبابه الذي ولّى، حين أسلم نفسه للزمن يفعل فيه ما يشاء فعلاً كُتِب عليه لتقدم السن به، وبعد أن أمضى في شبابه في الجاهلية ما أمضى؛ فيقول وكأنه يخاطب عاذلته مظهراً شوقه

إلى الماضي(41):

فإما هلَكْتُ فلا تَجزعِي
ونامِي على دائِكِ المستَكِن
لَعمر أَبِيكِ، لَقَد شاقَنِي
مكان حزِنْتُ لَه أو حزِن
منازِلُ لَيلى وأتْرابها
خَلا عهدها بين قَو فَقُنْ
خَلا عهدها بعد سكانِها
لِما نالَها مِن خَبالٍ وجِنْ
لَيالِي لَيلَى على غانِظٍ
ولَيلَى هوى النفْسِ ما لَم تَبِن
سقَتْنِي بِصهباء دِرياقَةٍ
متَى ما تُلَين عِظامِي تَلِن
صهابِيةٍ مترِعٍ دنها
تُرجع مِن عود وعسٍ مرِنْ
وشَقتْ لِي الليلَ عن جيبِهِ
بِلَذتِها، وضجيعِي وسِن

ولا شك في أن إعجاب الشاعر بليلى – التي هي رمز لشبابه – وارتياحه النفسي لها، جعله يذكر عن قصد وعل الجبل(42)؛ ليضفي عليه – على نفوره – روعة المكان، وسرور الحال، فصوره يشرب آمناً مطمئناً من ماء استقر في صخرة في جبل عالٍ؛ فيقول(43):

ولَو بذَلَتْ حسن ما عِنْدها
لِبارحِ أروى نَوارٍ مسِن
قَروعِ الظرابِ بِأظْلافِهِ
رشُوفِ الفَراشِ بِساءٍ ركن(44)
شَبوبٍ كأن قَرا ظَهرِهِ
مِن الزيتِ بعد دِهانٍ دهِن
مرابِعه الخُمر مِن صاحةٍ
ومصطافُه فِي الوعول الحزن
أظَل ينازِعها لُبه
نِزاع القَرِين حِبالَ الرهن

ويبدو لي أن الشاعر ذكر وعلَ الجبل ليكنّي به عن المنغّصات التي نغّصت عليه حياته بمسؤولية الزمن، وحتى يخفف عنه ما جره الدهر عليه منها، ويعزي نفسه ببعض التعزية ذَكر الماء في هذا الموضع بهذه الصفة، ليدل به على صفاء الحياة التي كان ينعم بها بوصال صاحبته أيام الشباب، ومن ثَم جاء ذِكْره لشرب الماء على هذا النحو إضافة أخرى لتدل أيضاً على تلك الحياة التي احتضنتها أجواؤه الداخلية، والتي ما زال يعيش على ذِكْراها الآن، فإذا حالت حوائل دونهما، وباعد الزمان بينهما، وترتب على ذلك أن رحلت الصاحبة عن الديار رحلت وقد أخذت معها شبابه، وتركته بأسوأ حال في شيخوخته يقاسي عبث الزمان به، كما تقاسي الديار عبث السنين بها.

ولكن الشاعر لم يستسلم لما حلّ به، فقد حاول بعد مضي عهد من الزمان أن يسترد نشاطه وينعش حياته، وأن يبعث فيها الأمل من ناحية، والحركة من ناحية ثانية، فكان لا بد له في رحلة العمر هذه من أن يحوك قصة صغيرة يمتطي فيها بطلنا فرساً نشيطاً خفيف العثار، جعل يسير به إلى حوض داثر عفى عليه الزمان، ومن ثَم جعله يدفع العصافير عنه، مكتفياً بهذا القدر من الأحداث، وبالنهاية التي توقفت عند هذه الحركة، ليصل إلى غرضه بأيسر الطرق وأقربها، إذا تأولنا أن الشاعر أراد بهذه الحركة أن يحيي الحوض من جديد، بحيث يجعله مورداً يرده من أراد أن يشرب ماء الحياة.

لا شك في أن هذه الرحلة تبدو على هذا النحو من السرد رحلة عادية ليس فيها ما يثير أو يلفت النظر، ولكن النظرة المدقّقة لحياة ابن مقبل وشعره تدل على أن الشاعر وفّر لرحلته من ضروب البيان والبديع، ما يمكن أن يلقي إضاءة جديدة على نزوعه إلى حياة الشباب، وشوقه إلى هذه الحياة؛ فقابل رحلة حياته برحلة الفرس، وقد جعله أداة بيده يحركها لِما يشاء ووقت ما يشاء، وكنّى عن نفسه بالفارس، واستعار الحوض الداثر للتعبير عن شبابه الذي لن يعود البتة. وإرضاء لنفسه في صراعه مع الحاضر إزاء تعلّقه بالماضي، فقد رمز بالحركة المتولّدة عن دفع الفرس العصافير عن الحوض لإحياء شبابه، رمزاً مصدره الصراع الذي أقامه الشاعر بينهما على الماء (الحياة) الذي وصفه بأنه ماء قليل، ذلك ان دفع الفرس العصافير عن الحوض يجعلنا نسلّم – والمنطق يفرض علينا – بالنتيجة المتوقّعة التي لم يذكرها الشاعر في قدرة الفرس على الاستئثار بالماء وحده، لأن الفرس هو العنصر الأقوى في هذا الصراع، استئثاراً يقصد منه الحفاظ على الماء حفاظاً يجعل الشاعر يتشبث في نزوعه إلى الماضي الذي يحيي شبابه، نزوعاً يسيطر عليه في حاضره، ويحتاج فيه إلى قوة تعيده إلى هذا الماضي بما فيه من حيوية وشباب، كقوة هذا الفرس، تكمن في عودته إلى

الحياة الجاهلية، وعودة دهماء إليه؛ فيقول الشاعر معبراً عن ذاك(45):

وغَيثٍ تَبطنْتُ قُريانَه
إذا رفه الوبلُ عنْه دجِن
بِنَهدِ المراكِل ذِي ميعةٍ
أزل العِثار مِعن مِفَنْ
وصاحِبِ صِدقٍ تَناسيتُه
كَراه، ولَهيتُ حتى أذِن
يذُود العصافِير عن داثِرٍ
دِفينِ الإزاءِ خَلاءٍ أجِن(46)

ومع محاولات الشاعر المتكررة لبعث الشباب في نفسه، إلاّ أنه لم يستطع أن ينكر شيخوخته وهرمه، ولكنه حاول أن ينعش كِبره بأسلوب ينسيه واقعه أو يدعوه إلى تجاهله؛ فانصرف إلى فِعل الخيرات انصرافاً ربما أراد أن يكون تعويضاً له عن شبابه الذاهب، أو ربما أراد أن يكون مسلكاً من نوع آخر استثمره الشاعر عن قصد، ليصل إلى معادلة متقابلة كنى فيها عن إحيائه شبابه بإحياء المحامد وفعل الخيرات. وفي تصوري أن الشاعر لم يجد في هذه السن المتقدمة أفضل من هذه الأفعال، التي تتسق مع نفسه – ولو في الظاهر – في ظل الأجواء الجديدة، ليناسب بين الحياة الباطنة التي يحياها في داخله بكل الصور التي لجأ إلى التعبير عنها، وبين الحياة التي أخذ يرمي إليها في واقعه؛ فيقول(47):

وأرعى الأمانَةَ فِيمن رعى
ومن لا تَجِده أمِيناً يخُن
تَركْتُ الخَنا، لَستُ مِن أهلِهِ،
وسمنْتُ في الحمدِ حتى سمِن
بِوفْري العشِيرة أعراضها
وخَلْعِي عِذار الخَطِيبِ اللسِن
وجوفاء يجنَح فِيها الضريك
لِحِين الشتاءِ جنُوح العرِن
ملأتُ، فَأترْعتُها تابِلي
علَى عادةٍ مِن كَريمٍ فَطِن

فإذا لم يستطع ابن مقبل في النموذجين السابقين أن يصل إلى حالة من الاستقرار في نفسه وشعره، بل بقي قلقاً من شيخوخته، متعثراً في رؤيته لواقعه، ومن ثَم مضطرباً في ترتيب موضوعات شعره وتقديم أولوياتها؛ وإذا لم يستطع أن يحل قضيته حلا نهائياً، لأنه من المحال إرجاع الزمن إلى الوراء، إلا أنه حاول أن يوازن أحياناً بين حاضره وماضيه، أي بين شيخوخته ونزوعه إلى الشباب، ولكن حنينه إلى الأيام السالفة غلب على مشاعره تجاه أيامه الحاضرة، حنيناً دارى به قلقه النفسي، وأفقده الواقعية الوضوح.

فإذا كان الأمر كذلك، وكان عدم حل قضية ابن مقبل أمراً مسلماً به، فإن من العبث تكرار القول في نماذج أخرى بات الحكم فيها معروفاً، إلا ما كان من إضافة أساليب جديدة إلى رصيد الأساليب عند ابن مقبل، إضافة تؤكِّد رفضه لواقعه وانتعاشه بتذكّر ماضيه، خاصة إذا تجاوزت هذه الإضافة الإحساس المعنوي في النفس إلى حاسة البصر، كان لجأ إليها ابن مقبل ليعلن لنفسه أولاً حجم قضيته، إعلاناً لم يتعد في هذه المرحلة محيطه الداخلي والخارجي القريب(48).

وحسبي أن نقف عند النموذج التالي لنعزز ما ذهبنا إليه، فقد عرض ابن مقبل قضيته من خلال عاملين اثنين، تضافرا ليشكّلا معاً محور مشكلته التي يسعى بشتى السبل لحلّها، أما العامل الأول فهو العامل الذي لا يفتأ يكرر الحديث عنه في القصائد التي تدور حول الموضوع الذي نحن بصدده، وهو كِبره وشيبه وما جناه ذلك عليه من ترك الصبا والباطل، تركاً جعله يتحسر على ما مضى من شبابه؛ فيقول(49):

ألا يا لَقَـ ـومٍ لِلديـارِ بِبـ ـدوةٍ
وأنى مِراح المرءِ، والشيب شامِلُه

وأما العامل الثاني فكان مما أضاف إلى آلامه آلاماً أخرى، وهو رحيل الأحبة عن الديار رحيلاً أسلمه للحزن واليأس، مع ما ترتب على هذا الرحيل أن أصبحت الديار مرتعاً لشياه العدو وجمالهم، يسرحون فيها ويجولون؛ فيقول(50):

صحا القَلْب عن أهل الركاءِ وفاتَه
على مأْسلٍ خِلانُه وحـ ـلائِلُه(51)
أخُو عبراتٍ سِيقَ لِلشّامِ أهلُه
فَلا اليأْس يسلِيهِ ولا الحزن قاتِلُه
تَناسأَ عن شُربِ القَرينَةِ أهلُها
وعاد بِها شاء العـ ـدو وجامِلُـ ـه

ولهذين العاملين مع ما يشعر به الشاعر من نفسية متهدمة، علاوة على أنها مضطربة، كان لا بد له من أن يشيع في قصيدته جواً من الحركة والحيوية يقع على مد بصره، ويحس به في نفسه إحساساً يجدد الحياة في أجوائه

الداخلية، ويعزو إليه آماله الوهمية، وذلك بإنعاش ذاكرته بماضيه بما فيه من شباب وصبا، بعد أن مضى الزمان وعفى على الديار، ويتمثل هذا الجو في حركة المياه وهي تجري في الركاء؛ فيقول(52):

هل انْتَ محيي الربع أم أنْتَ سائِلُه
بِحيثُ أحالَتْ في الركاءِ سوائِلُـه

ومما يؤكّد ما ذهبنا إليه أن ابن مقبل لا يفتأ يردد في أبيات القصيدة ما كان يتمتع به من طيب العيش بوصال الأحبة، ونعيم الحال باستقرار حياته استقراراً يكتمل برؤيته قومه يجتمعون في المجالس، وخيولهم تعدو أمامهم بجِنان "الدحول"(53) عدواً أمدها بالحركة والنشاط، وهي تشعر بانتعاش الحياة حولها انتعاشاً أفاده ذِكْره مياه "الدحول" في هذا الموضع؛ فيقول(54):

أَلا رب عيـشٍ صالِحٍ قَد لَقِيتُـه
بِضيقِ الركاءِ إذْ بِهِ من نُواصِلُه
إِذِ الدهر محمود السجِياتِ، تُجتَنَى
ثِمار الهوى مِنْه، ويؤْمن غائِلُـه
وحي حِلالٍ قَد رأَينـا ومجِلـس
تَعادى بِجِنّان الدحول قَنابِلـ ـه

غير أن الظروف المحيطة بابن مقبل لا تبقى على حالها، فقد تشتد عليه إلى الحد الذي يشعر فيه بالضعف والعجز الكامل عن مواجهة أزمته، مواجهة لا يملك حيالها إلا أن يقر بواقعه ويعترف بكِبره، اعترافاً لم يجِد معه لجوءه إلى الماء في التخفيف من وقْعه عليه، وأثره في نفسه؛ ففي أحد النماذج الذي تأولنا فيه هذه الرؤية لاذ ابن مقبل – وصولاً إلى غرضه كما يظن – بالماء الضحل(55)، مستخدماً في هذا النموذج أسلوب الرمز والمقابلة في آن، ليوجز أزمته بأيسر الطرق وأقربها، وهو يلجأ إلى هذا الأسلوب بعد أن يكون قد عرض لأزمته في كثير من القصائد، وحينما لا يريد من الشاهد الشعري أن يشكّل موضوعاً كبيراً يتحدث فيه عن أزمته بأبعادها المؤلمة وعن لجوئه إلى حلّها، بعد أن يئس من إيجاد حلّ لها، فمن المحال أن يعود إلى الشباب أو أن يختزل بضع سنوات من عمره تعيده إلى الوراء؛ فعلى سبيل المثال أتى بصورة الأتان الضامرة البطن، التي أجهدها السير والضرب، والتي أوردها حمار الوحش في الصباح ماء ضحلاً، ليقابل في شطر من هذه الصورة بين معاناتها من التعب والإرهاق وبين معاناته بفَقْد شبابه، معاناة لجأ – كعادته – إلى الماء للتخفيف من شدة وطأتها عليه، ولذاك رمز بالماء الضحل في الشطر الآخر من الصورة إلى شبابه وحيويته، مع ما توافر له – في شَطْري الصورة – من عناصر موضوعية ساعدته في الوصول إلى غرضه، تمثّلت في قوة الحمار الوحشي وأتنه وهما يرتعيان نباتاً التفّ وطال، قوة ترمز إلى ميعة الصبا والشباب، وأخرى لفظية تمثّلت في قوله: "مع الإبصار" وهو الصباح رمز الحياة والحيوية والنشاط؛ فيقول(56):

يقَلب سمحجاً قَبـاء تُضحِـي
كَقَوسِ الشوحطِ العطُل الصنِيعِ
يظَـلاّن النهـار بِرأْسِ قُـف
كُميتِ اللّـون ذِي فَلَكٍ رفِيـعِ
ويرتَعِيـان لَيلَهـمـا قَـراراً
سقَتْه كُـل مغْضِنَـةٍ همـوعِ
زخَـارِي النبـاتِ كَـأن فِيهِ
جِيـاد العبقَـرِيةِ والقُطُـوعِ
فَلَما قَلّـص الحـوذان عنْـه
وآلَ لَوِيه بعـ ـد المتُـ ـوعِ
وهيجها الطرِيقَ، فَأَصحبتْه
بِرجلٍ رأْدةٍ ويدٍ ضبـ ـوعِ
بِرجلٍ رأْدةٍ، لا عيب فِيهـا
أَضربِها العِثَار، ولا ظَلُوعِ
تَصك النحر والدأَيـاتِ مِنْه
بِضربٍ أَو تَوجعـه وجِيـعِ
فَأوردها مع الإبصار ضحلاً
ضفادِعه تَنِق على الشـروعِ

ولكن كما يبدو فإن الشاعر لم يستطع في نهاية القصيدة أن ينكر واقعه، ويتجاهل شيخوخته، ولذاك قلّل مياهه تحسباً لهما، وللقليل الباقي من عمره الذي رضخ فيه لقيادة الزمن، وقسوته عليه، مواجهاً نفسه بالحقيقة المرة ان العودة إلى حياة الشباب لا يمكن أن تتحقّق له من الناحية الفعلية، وإنما يمكن أن تكون عودته إليها عودة معنوية تكمن ذكراها في نفسه، والدليل على تأولنا هذا أنه يرى أن منيته دنت ولم يلقَ حي بني الخليع(57)، الذين يأخذ في مدحهم والفخر بهم فيما بعد(58)؛ فيقول(59):

أقُولُ، وقَد قَطَعن بِنا شَرورى
ثَوانِي، واستَوين مِن الضجوعِ

لِصحبِي، والقِلاص العِيس تَثْنِي
أزمتَها سوالِفُ كالجُذوعِ
أبالِغَةٌ بِليتَها المنايا
ولَما ألْقَ حَي بِني الخَلِيعِ

والنتيجة التي أود الوصول إليها أن النماذج السابقة أظهرت أن شاعرنا استطاع أن ينفذ إلى قضيته بالأساليب التي توقّفنا عندها، وبأصناف المياه التي مثّلها بها، والتي تراوحت بين المياه الصافية والحوض الداثر والماء الضحل، ليدل بها على فترتين متناقضتين في حياته هما: الشباب والشيخوخة مع ما ترتّب على هذه الدلالة من اضطراب نفسيته ومن ثَم شعره في نزوعه إلى الماضي، وعدم وضوح واقعيته في التعايش مع شبابه تعايشاً غير مرئي في حال هرمه، وتخبطه في الوصول إلى نتيجة واحدة يقف عندها في معالجة أزمته.

ب – حبه لدهماء، وحنينه إلى الحياة الجاهلية:

لقد أدرك ابن مقبل – منذ البداية – وهو يحاول أن يعالج نفسه بنفسه، وأن يعفّي بالقول لا بالفعل على الغمامة التي شملت جسده، وقد استبانت أكثر ما يكون في عوره(60) وتجاعيد وجهه، أنه لن يتمكّن من تخفيف أزمته عليه، والتقليل من شدة وطأتها على طبيعة حياته، لأن ما يعاني منه شاعرنا لا يقف عند أزمة واحدة تتحدد في هرمه وشيخوخته ونزوعه إلى الشباب، وإنما ارتبطت هذه الأزمة بأزمة أخرى أو بمعضلة(61) أخرى ضاقت عليه الحِيل في حلّها، وهي بعده عن دهماء رمز صلته بالجاهلية. وقد لجأ الشاعر إلى تخفيف أزماته(62) عليه بمحاولته معالجة الأزمة الأولى بالأساليب التي ذكرناها، معتسفاً طريقه مرة ومهتدياً أخرى، ومتخبطاً تخبطاً نابعاً من اضطرابه النفسي في الإقرار بشيخوخته حيناً، وفي نزوعه إلى الشباب حيناً آخر، لجوء اليائس الذي يبحث عن الأمل في غياهب الماضي، ظانّاً أنه إن روى نفسه معنوياً بتذكّر شبابه فإنه يستعيد حبه لدهماء، ولكن أنى له ذلك! وقد صدِم بحقيقة الواقع الذي فرضته عليه تعاليم الإسلام، وكبلته بقيودها، فقد ذكر ابن حبيب أن ابن مقبل كان متزوجاً دهماء في الجاهلية، وكانت تحت أبيه فخاف عليها بعد موته، وتلك عادة جاهلية، فـ "كان الرجل إذا مات، قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيه، فورث نكاحها [وهو أشنع ما كانوا يفعلون](63) ... وقد فرق الإسلام بين رجال ونساء آبائهم، وهم كثير ... منهم تميم بن أُبي بن مقبل. وكانت تحته دهماء امرأة أبيه ففرق بينهما الإسلام"(64).

وعلى الأرجح أن ابن مقبل كان شاباً حين خاف على دهماء وتزوجها، ويبدو من قصائده أنه أحبها حباً جماً، وتعلّق بها تعلّقاً شديداً، و"أنه قضى معها وقتاً طويلاً أسرته بحبها وغمرته بلطفها وحنانها"(65)؛ لأنه ما فتئ يحن إليها ويذكرها في شعره، بعد أن شاب، وفرق الإسلام بينهما كما ذكر ابن حبيب، وكما صرح هو بذلك من قبل، فيقول(66):

أنَاظِر الوصل أم غادٍ فَمصروم
أم كُل دينِك مِن دهماء مغْروم
أم ما تَذَكر مِن دهماء إذْ طَلَعتْ
نَجدي مريعٍ، وقَد شاب المقادِيم
هلْ عاشِقٌ نالَ مِن دهماء حاجتَه
في الجاهِليةِ قَبلَ الدين مرحوم

ولا شك في أن شاعرنا إذ يذكر تكاثف أزمتيه(67) عليه، تكاثفاً يشكّل له اضطراباً وقلقاً نفسياً، فإنه يشير من ناحية أخرى إلى أن تعاظم أزمتيه عليه إنما يكتمل بابتعاده عن الجاهلية، بل إن بعده عنها أساس المشكلة كلها، وسببها، وما حلّ به، لأن كل ما كان الآن، لم يكن فيما مضى فقد ملك زمام أموره كلها وهو ينعم بنعيم الجاهلية، على أن الشباب وتقدم العمر أمر بقاؤه أو تغييره ليس بيد الإنسان. ولو فرضنا أن شاعرنا فَقَد الشباب وحده وصار إلى الهرم مع بقائه في الجاهلية وعلى حبه لدهماء، فإنه يعوض هذا النقص الجزئي الذي اعتوره – إن جاز التعبير – ببقاء الأصل وحياة الروح، فلا يشعر حينئذٍ بوجود مشكلة في حياته، وإن شعر بها فإن شعوره هذا لا يشكّل وطأة كبيرة على نفسه، لأن الكِبر أمر يصير إليه الناس جميعهم. أما وقد فَقَد ذلك كله فهنا تعمق المشكلة وتكبر إلى الحد الذي يعسر فيه حلّها، وبذلك يستبين لنا – دون تردد – أن السبيل الأولى التي سلكها ابن مقبل في حلّ مشكلته لم تجدِ نفعاً عليه، إذا أدركنا سلّم ابن مقبل في ترتيب أزماته حسب أهميتها وشدتها ترتيباً تنازلياً.

ولعل النموذج التالي يوضح أزمة شاعرنا بأبعادها التي أشرنا إليها، وسعيه لحلّها سعياً يكرر فيه أسلوبه في الابتداء بحل المشكلة قبل عرضها، حلا ينم عن توق شديد إلى حياة آمنة واستقرار نفسي، بعد أن يكون الشاعر قد عانى ما عانى من الاضطراب والقلق النفسي، الذي انعكست صورته على ترتيب الأبيات في القصيدة الواحدة كما ألمحنا إلى ذلك.

فقد استقر في وجداننا أن القضية التي تؤرق شاعرنا، وتنغّص عليه حياته، وتحتلّ الجزء الأكبر من تفكيره هي بعده عن دهماء امرأة أبيه، ذلك لأن دهماء تشكّل لشاعرنا – إن أحسنّا التصور – حلقة وصل بينه وبين شبابه في حلقة حلزونية مستديرة مكونة من دورين؛ إذ يقف كل عنصر من هذين العنصرين في ركن من أركان الدور الأول فيها، وتقف الجاهلية في وسط هذا الدور، في حين يقف الإسلام في وسط الدور الثاني من هذه الحلقة، وقد حفّ بتعاليم الدين الحنيف من ناحية، وشيخوخة شاعرنا من ناحية ثانية.

وما ان بدأ شاعرنا يتجاوز الدور الأول في هذه الحلقة حتى ابتعد عن الجاهلية، وفارق دهماء وفارق شبابه، فلما وصل إلى الدور الثاني فيها أطل على وسطها فإذا به يجد الإسلام، ونظر أمامه فوجد نفسه يساير تعاليم الدين الإسلامي، وقد تقدمت به السن وشاخ وكبر.

ولم يكن ابن مقبل ليترك دهماء لولا أن فرق الإسلام بينهما، وقد ساعد كِبره وهرمه على تركه إياها، فقد ودع الصبا، وفارق الشباب(68)؛ فقال يكنّي عن ذلك(69):

أجدي أَرى هذا الزمان تَغيَـرا
وبطن الركاءِ مِن موالِي أقْفَرا(70)
وكائِن تَرى مِن منْهلٍ باد أهلُه
وعِيد على معروفِه، فَتَنَكرا(71)
أتاه قَطَا الأجبابِ مِن كُل جانِبٍ
فَنَفر في أعطانِه، ثُم طَيرا(72)
فإما تَريِني قَد أطاعتْ جنِيبتِي
وخُيطَ رأْسِي بعد ما كان أوفرا
وأصبحتُ شَيخاً أقْصر اليوم باطِلِي
وأديتُ ريعان الصبا المتَعورا
وقَدمتُ قُدامِي العصا أهتَدِي بِها
وأصبح كَري للصبابةِ أعسرا

والأبيات واضحة الدلالة على تغير الظروف من حول شاعرنا، وانتقاله من عهد رأى فيه حياته كالحياة التي يراها الظمآن في منهل ينْهل منه، إلى عهد سلبه تلك الحياة، وأباد رواد ذلك المنهل إبادة استخدم فيها أسلوب الرمز للتعبير عنها، "فقد رمز بهذا اللون من القطا لما دهمه ودهم قومه واجتاحهم وطمس معالم شخصيتهم فباد ذوو مناهلهم"(73). وليس هذا فحسب، بل إن هذا العهد تنكّر لحياته الماضية أشد تنكّر، مستنداً إلى تعاليم الإسلام التي بحثت في جميع السلبيات التي لم توافقها، والتي درج ابن مقبل عليها وعاشها في الجاهلية، فألغتها ومن ثَم هذبت حياته، وقد كان زواجه من دهماء إحدى هذه السلبيات التي رفضها الإسلام رفضاً قاطعاً، استناداً إلى قوله تعالى(74): ﴿ولا تَنْكِحوا ما نَكَح آباؤُكُم مِن النساءِ إلا ما قَد سلَفَ إنه كان فاحِشَةً ومقْتاً وساء سبِيلاً﴾. فلم يكن أمام شاعرنا – حيال ذلك – إلا أن يرفع الراية مستسلماً، وأن يبتعد عن دهماء على الرغم من حبه لها، وشدة تعلّقه بها؛ فقال في ذلك(75):

هلْ عاشِقٌ نالَ مِن دهماء حاجتَه
في الجاهِليةِ قَبلَ الدين مرحوم

على أن ابن مقبل وإن استسلم للقيود التي فرضها الإسلام عليه، لكن استسلامه كان في الظاهر مجاراة للوضع القائم فحسب، ولو جاز لي الذهاب في التأويل أكثر مما تأولت لقلت: إن ذلك كان مجاملة لهذا الدين مجاملةً يفْهم منها مجاراة الواقع للمصلحة، وأي مصلحة يبغي غير المصلحة المعنوية التي تمده براحة نفسية؟! لأن ابن مقبل ما زال يبكي في شعره الجاهلية وأهلها، بكاء يدل من ناحية على أنه ترك دهماء راغماً لا راغباً، وأنه ما فتىء يذكرها في شعره ويحن إليها، وإلى تلك الحلقة التي تربطه فيها دهماء بشبابه وبالجاهلية؛ فقال يكنّي عن ذلك(76):

ألَهفِي على عِز عزيِزٍ وظَهرةٍ
وظِل شَبابٍ كُنْتُ فِيهِ فأدبـرا
ولَهفِي على حيي حنَيفٍ كِلَيهما
إذا الغَيثُ أمسى كابِي اللون أغْبرا
يذَكرنِي حيي حنَيفٍ كِلَيهمـا
حمام تَرادفْن الركِي المعورا(77)
وما لِي لا أبكِي الديار وأهلَها
وقَد حلها رواد عك وحِميرا

ويتفق هذا الرأي في الحكم على موقف ابن مقبل من الإسلام، مع ما ذهب إليه أحد الباحثين في رده على المستشرق بلاشير في دعواه أن ابن مقبل كان متديناً(78)؛ لقوله يرد على ابنتي عصر العقَيلي حين عابتا عليه عوره وكِبره(79):

لَولا الحياء ولَولا الدين عِبتُكُما
بِبعضِ ما فِيكُما إذْ عِبتُما عوري

ان "هذا الكلام لا يوحي بالانتماء للتدين العميق، وإنما قد يكون من باب اتقاء ما أوجده الإسلام من تقاليد وقوانين

جديدة، ولأنه كذلك لا يتماشى مع ما ثبت أنه ظل وفياً لقيم الجاهلية فبكاها وبكى عهدها"(80).

وقد لفتت الأبيات السابقة في بكاء الجاهلية نظر العلماء القدامى(81)، منهم ابن سلاّم الجمحي؛ فقال عنها في ترجمته لابن مقبل(82): "وكان ابن مقبل جافياً في الدين، وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية ويذكرها، فقيل له: تبكي أهل الجاهلية وأنت مسلم؟ فقال:

وما لِي لا أبكِي الديار وأهلَها،
وقَد زارها زوار عك وحِميرا؟
وجاء قَطَا الأجبابِ مِن كُل جانِبٍ
فَوقع فِي أعطانِنـ ـا، ثُم طَيّـ ـرا"

وأشار إلى ذلك ابن رشيق في باب الإشارة، فقال(83): "ومن أنواع الإشارات الكناية والتمثيل، كما قال ابن مقبل... (البيتان). فكنّى عما أحدثه الإسلام ومثّل كما ترى".

والمسألة عند ابن مقبل فيما هو فيه تعود إلى أنه أمضى فتوة شبابه في الجاهلية، وهو الشطر الأهم من عمره الذي يعي لذاذة الحياة ونعيمها، والذي أسس فيه نفسه مكوناً ثقافته البدوية التي تقوم على الحرية الفردية، والأعراف والعادات والتقاليد القبلية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي آنذاك، تكويناً ثَبتتْ في أعماق نفسه، وارتبطت بها ارتباطاً لا ينفصم، شأنه في ذلك شأن من تربى على شيء ونشأ عليه(84). ويعزى إلى هذه النشأة تكون شاعريته بالقيم الجاهلية التي تربى عليها، وكأن ابن سلاّم أدرك – عندما جعل ابن مقبل في الطبقة الخامسة من فحول الجاهلية(85) – أن شاعرية شاعرنا "تكونت... وهو في الجاهلية، وكانت كل قيمه الفكرية وأساليبه الفنية قد تكاملت في الجاهلية، فلم يتأثّر بالإسلام تأثّراً جوهرياً يمتد إلى الفهم الإسلامي للحياة وعلاقاتها، أو كانت ممارسته للحياة الإسلامية من القلة والضآلة بحيث لم تؤثّر تأثيراً جذرياً في جوانب تفكيره ومناحي علاقته، يدلنا على ذلك ما كان من بكائه الجاهلية وأيامها وهو في الإسلام، وذِكْره الدهماء بعد أن فرق الإسلام بينهما"(86). والأهم من ذلك – ويعد من أسباب ضعف إسلامه – أن تكون عامر – قوم ابن مقبل - قد تأثّرت بالقبائل التي ارتدت عن الإسلام عند تسلّم أبي بكر الخلافة، ولم يكن مضى سوى عام على إسلامها، وكانت هذه القبائل تقطن اليمامة والبحرين وما حولها في مناطق تحاذي منازل قبيلة الشاعر، وقد وصفت "عامر بأنها كانت تقدم إلى الردة رجلاً وتؤخّر أخرى"(87)، و"في هذه المدة لم يتأثّر ابن مقبل ولا غيره من شعراء البادية – عموماً - بالإسلام"(88). ولهذه الأسباب مجتمعة كان من الطبيعي أن يعيش ابن مقبل في الإسلام بجسده فقط(89)، وأن تبقى روحه وفكره متعلقين بالجاهلية وأيامها، بل كان لا بد له من أن يشعر بالوحدة والوحشة في المجتمع الجديد الذي لم يألفه من قبل، وأن يعيش غريباً فيه غربة فردية – ولا سيما في أيامه الأولى من دخوله في الإسلام – وتلك أقسى الأحوال! يضاف إلى ذلك أن تعلق شاعرنا بالجاهلية موصول بالتعلّق بزوجته دهماء التي ورث نكاحها عن أبيه، والتي فرق الإسلام بينهما فيما بعد؛ ذلك ان دهماء جزء هام من الماضي الذي يربطه بالجاهلية، والذي لم يستطع أن ينساه في حياته الجديدة في الإسلام، ويبدو من شعره أنه كان يعشقها عشقاً شديداً؛ لأنه ما فتىء يذكرها فيه ويحن إليها بعد أن فرق الإسلام بينهما.

وإذن ليس غريباً على ابن مقبل – بوجود هذه الأسباب – أن ينفث نفثات حارة في شعره يبكي فيها الجاهلية وأهلها، وأن يقصر القصيدة التي نحن بصدد الحديث عنها على تمجيد الحياة الجاهلية ومثُلها، مظهراً حسرته ولهفته على أيامه التي أمضاها فيها(90)، وهو يسترجع مخزون ذاكرته رجوع الأسير الكهل المقيد بأغلال الحاضر، إلى حياة الشاب الطليق النفس بحرية الماضي. فهو على ذلك يعيش عصرين في آن، عصر في واقعه وحاله، وعصر في باطنه، عصر يقوم على أعماله وأفعاله، وعصر يقوم على استرجاع ذاكرته، عيشة أوقعته في صراع ونزاع بين ما هو عليه، وبين ما كان عليه، وجعلته مضطرباً قلقاً في أحواله كلها ينشد ضالته ولا يستطيع الوصول إليها، ذلك لأن شاعرنا لم يستطع البقاء على القديم الذي اعتاده وقد تغيرت الظروف من حوله، ولم يستطع أن يساير الجديد الذي طرأ عليه، ونفسه مرتبطة بالقديم أيما ارتباط(91).

ولأن الشاعر – كما يبدو في الأبيات السالفة – يتحسر على عزه الذي مضى له في الجاهلية، ويغتم له غماً حزيناً، فقد وجد – على عادته في إيجاد الحلول – أن من المناسب أن يجلّي همه، ويكشف غمه، وأن يعلن عن طريق الكناية عن الحياة التي تعيش في داخله وعن حنينه إليها، تلك الحياة التي تحييها مياه الأمطار التي تسقط من سحاب متراكم بعضه فوق بعض، سقوطاً أصاب مناطق عدة، وملأ مواضع المياه فيها مثل "ملْحوب"(92)، كما يذكر في قوله(93):

تَأملْ خَلِيلي هلْ تَرى ضوء بارقٍ
يمانٍ، مرتْه ريـح نَجـدٍ فَفَتـرا
مرتْه الصبا بِالغَور غَور تِهامةٍ
فَلَما ونَتْ عنْه بِشَعفَين أمطَـرا
وطَبقَ لَوذَان القَبائِل بعـد مـا
سقَى الجِزع مِن لَوذَان صفْواً وأكْدرا
كأن بِهِ بين الطـراةِ ورهـوةٍ
وناصِفَةِ الضبعين غاباً مسعـرا
فَغَادر ملْحوباً تُمشي ضِبـابه
عباهِيلَ، لَم يتْرك لَها الماء محجرا
أقام بِشُطان الركـاءِ وراكِـسٍ
إذا غَرِق ابن الماءِ فِي الوبل بربرا
أصاخَتْ لَه فَدر اليمامةِ بعد ما
تَدثرها مِن وبِلـهِ ما تَدثـرا
أناخَ بِرمل الكومحين إناخَةَ الـ
ـيمانِي قِلاصاً حط عنْهن أكْورا

ويلفت النظر أن ابن مقبل يلجأ في هذا الموضوع إلى استخدام أسلوب الكناية أكثر من غيره من أساليب البيان، لأنه الأسلوب الأنسب له الذي يستطيع أن يكنّي به عن أزماته الثلاث، وأن يخفي حقيقة مشاعره ونزعاته النفسية تجاهها، في ظل ظروف لا يستطيع أن يفصح فيها عنها، أو أن يشير إليها إشارة صريحة. ويتبدى هذا الأسلوب واضحاً في النموذج التالي؛ إذ يكنّي الشاعر فيه عن أزمتين من أزماته التي ذكرناها، فهو يذكر منذ البيت الأول فيه أنه لما انقضى الربيع وحلّ الصيف خلت الديار من أهلها، وبعد عهدهم بها، ويحدد الشاعر الديار التي يذكرها في موضعين، الموضع الأول هو "السر" وهو في ديار بني تميم كما يذكر البكري(94)، ولكن البكري لم يشر إلى صفة هذا الموضع، وعلى الأرجح أنه موضع توجد فيه المياه، لأنه ذُكِر مع موضع آخر هو "الشرف" وهو ماء لبني كلاب(95)، وذِكْر الشاعر لهذين الموضعين هو ذِكْر متعمد لأمر يستبين فيما بعد يرجح معه أنهما موضعا ماء، ولأنه ذكر بعد ذلك أن القوم اضطروا للرحيل عنهما في الصيف، والعودة إلى محاضرهم المختلفة وقد تفرق أمرهم. وحسبي بالشاعر أنه أراد أن يكنّي بمطلع قصيدته عن أمرين في حياته، فكنّى عن انتقاله من الجاهلية إلى الإسلام – أو من الشباب إلى الشيخوخة – وعن مفارقته دهماء بالرحيل عن الديار وأهلها(96) في فصلين مختلفين، وكنّى عما يلاقيه من المعاناة في هذه المفارقة بالذي يقيظ في الصيف؛ فيقول(97):

شَطتْ نَوى من يحل السر فالشرفا
مِمن يقِيظُ على نَعوان أو عصفَـا
حتى إذا الريح هاجتْ بِالسفَى خَبتاً
عرض البِلادِ أشَت الأمر فاخْتَلَفَـا

إذ أفصح عن هذه المعاناة بأنه كلّف قلبه على تحمل فراقها ما لا يحتمل؛ فيقول(98):

أما اليمانِي مِن الحيين فانْشَمروا
وكُلّفَ القَلْب مِن دهماء ما كَلِفَا

وذلك عن غير رضاً منه، وقد عبر عن عدم رضاه بأن ألبس غضبه رواحل القوم المرتحلين، فوصفها بالصهميم(99) من الإبل الذي يتغضب حين يشتد السير فينظر في اعتراض؛ فيقول(100):

وقَربوا كُل صِهمِيمٍ مناَكِبه،
إذا تَداكأ مِنْه دفْعه شَنَفَـا

وقد ساعد تقدم السن بشاعرنا على هذه المعاناة النفسية، وعلى زيادة غضبه لما رأى الكواعب ينظرن إلى حاله في جِدة وريبة؛ فيقول متحسراً على نفسه(101):

ما لِلْكواعِـبِ لَما جِئْـتُ تَحدِجنِـي
بِالطرفِ، تَحسِب شَيبِي زادنِي ضعفَا
يتْبعن مِـن عـارِكٍ بِيضٍ سلائِقُـه
بعض الذِي كـان مِن عاداتِهِ سلَـفَـا
وكَان عهدِي مِن اللائِي مضين مِن الـ
ـبِيـضِ البهالِيـل لا رتَّاً ولا صلِفـا
قَد كُنْـتُ راعِـي أبكـارٍ منَعمـةٍ
فاليوم أصبحتُ أرعى جِلـةً شُـرفَا

ويبدو أن الشاعر زجر نفسه في هذه السن عن الصبا، وصار إلى الحِلْم والتعقّل؛ فيقول(102):

أمستْ تِلادِي مِن الحاجاتِ قَد ذَهبتْ
وقَد تَبدلْتُ حاجاتٍ بهـا طُرفـا

ولكن هذا الحِلْم وهذا التعقّل لا يمنعانه من أن يعود في أجوائه الداخلية إلى تذكّر شبابه، مترحماً على تلك الحياة التي عاشها في الجاهلية، وأن يحيي فيها حبه لدهماء إحياء أفاده فيه ذِكْره مواضع المياه في صدر البيت الأول، ليدل بذلك على أن هذه المفارقة إنما هي مفارقة شكلية ظاهرية في المكان والزمان، ولكن القلب ما زال متعلقاً بها فلا يتقيد

بحدود المكان، ولا يعرف نهاية للزمان، وهي مفارقة تظهر أن دهماء رحلت عنه بجسدها فقط، أما روحها فما زالت تحيا في حشاه بانتعاش يشعره بحيوية الحياة في داخله.

وتكثر النماذج التي نظمها ابن مقبل مقدماً لها بمثل هذا التقديم(103)، أو نظمها على هذا الموضوع – كما في النموذج التالي – كثرة اضطرته إلى أن يكرر فيها بعضاً من المعاني السابقة، على نحو يفرز ترتيب أزماته عليه حسب شدتها، فنجد أن حبه لدهماء يتقدم في الرتبة في أهميته عنده على شيخوخته ونزوعه إلى الشباب، وفي شدة وطأته عليه بعد أن فَقَده. وعلى نحو يظهر تشابهاً بين هذا النموذج والنماذج التي عرضنا لها في الحديث عن الأزمة السابقة؛ فقد علمنا منها أن ابن مقبل ضلّ طريقه متخبطاً فيه تخبطاً عشوائياً، بين الإقرار بالأمر أو رفضه وهو يلتمس الحلّ لمشكلته الأولى، فلعلّه كان كذلك وهو يسعى لحل مشكلته الثانية حلا يختلف في النموذج التالي عن النموذجين السابقين، ويتشابه مع تلك النماذج فيما سبق ذِكْره فيها(104). فهو في هذا النموذج يلح إلحاحاً يؤكّد فيه أنه ابتعد عن جهالة الشباب، واللجاجة في الباطل، وصار أقرب ما يكون إلى الحِلْم، وهو مع ما صار إليه من التعقّل والأناة يؤكّد – ما ذكرناه سابقاً – أن مفارقته دهماء إنما هي مفارقة شكلية ظاهرية، وأما مكانها في القلب فهو ثابت يرفض الاستسلام للشيخوخة والكِبر. وللتحول من الجاهلية إلى الإسلام فيما يفرضه عليه من قيود تحد العلاقة بينهما، أبى إلا تذكّر دهماء التي لا يفتأ القلب يلهج بذكراها؛ فيقول(105):

ألم تَر أن القَلْب ثَاب وأبصرا
وجلى عماياتِ الشبابِ وأقْصرا
وبدلّ حِلْماً بعد جهلٍ، ومن يعِشْ
يجرب ويبصِر شأنَه إن تَفَكرا
أبى القَلْب إلا ذِكْر دهماء بعد ما
عَنِينا، وأضحى حبلُها قَد تَبترا

وحتى يؤكد الشاعر حقيقة مشاعره – في الإشارة إلى الحياة التي تتوطّن قلبه، والتي أحياها ذِكْر حبه لدهماء رغم الظروف القاسية التي يمر بها – كان لا بد له من أن يلجأ إلى وسائل أخرى تعينه على ذلك، وكانت الوسيلة التي اعتدنا عليها عند شاعرنا الحديث عن المياه في الكناية عن هذه الحياة، وعن كدرها في الكناية عن الظروف المحدقة به. ولذلك عمد إلى الحديث عن رحيل دهماء، وجعلها عن قصد تتصدى لرؤيته، لتثير في نفسه نوازع الشوق ولواعج الفراق، فيستسلم حينئذٍ لهواه، ويطلق العنان لمشاعره في تذكّر قولها له، هذا القول الذي يحيي وجدانه عندما دعته إلى طلب ثوابها ووصالها؛ فيقول(106):

وما أنْس مِلأشْياءِ لا أنْس قَولَهـا
وقَد قُربتْ رِخْو المِلاطَين دوسرا:
ألاَ يا اجتَدِينَا بِالثـواب، فإنـنـا
نُثِيب، وإن ساء الغَيور المحـذرا

فكانت مكافأة الشاعر لها – على ما طلبت – أن دعا لها بالسقيا من سحاب متراكب، عم مطره – لكثرة مائه – أكثر المناطق في شمال الجزيرة العربية وجنوبها، وأحيا الغدران المدفونة بمياه كَدِرة بما أصابها منه إصابة أثارت التراب الذي غمرها؛ فيقول(107):

سقاها، وإن كانَتْ علَينـا بخِيلَةً
أغَـر سِماكِي أقـاد وأمطَـرا
لَه قائِد دهم الربـابِ، وخَلْفَـه
روايا يبجسن الغَمام الكَنَهـورا
وكَان حياً بِالشامِ أيسر صوبِـهِ
وأحيا حيا عامين فِي أرضِ حِميرا
وغادر بِالتيهاءِ مِن جانِبِ الحِمى
مِن الماءِ مغْمور العلاجيمِ أكْدرا(108)

ولا شك في أن الشاعر عندما جعل مياه الغدران كَدِرة إنما جعلها كذلك عن قصد، لأنه أراد أن يبين طبيعة الحياة التي يعيشها الآن، حينما أحس بوطأة الظروف التي فرضها الإسلام على علاقته بدهماء، فقد اضطرب بين نفسه وواقعه، أي بين إرضاء مشاعره ومسايرة الظروف الطارئة عليه، فلا هو متخل عن حبه لدهماء، ولا هو منكر لواقعه، وبين الحال الباطنة والظاهرة اضطرب في اتخاذ القرار، فجاءت تعابيره مغْبرة(109) تشرح حاله المتوترة، وصارت مياهه كَدِرة ليدل بذلك على أن الحياة الآمنة التي يمتحها من حبه لدهماء، وأن الاستقرار النفسي الذي تمنحه إياه هذه المحبوبة أصبحا قلقين بقيود الإسلام، في السر وفي العلن، فكيف يشعر بلذّة الحياة في أحشائه، وهو يرى أن الحياة خارج أحشائه أسيرة لتلك القيود ؟ بل إن نعيم الحياة ولذّتها مستحيلان عليه إن هو فَقَد دهماء، فكيف إذن تستقر نفسه؟

فإذا وجد ابن مقبل أن لا مناص له من أن يقر بطاوعيته لتعاليم الإسلام، وأن يساير مضطراً ظروف العهد الجديد

ويبتعد عن دهماء، فهل يجبره الإسلام على نسيانها كما أجبره على تركها، أو انه يبقى يذكرها، ويحيا على ذكراها؟

لقد كان ابن مقبل يدرك إدراكاً تاماً صعوبة تقبل هذا الأمر، وهو إن قَبِله فإنما يقبله على مضض، والدليل على ذلك الأشعار التي نحن بصدد الحديث عنها، كما كان يدرك صعوبة التعبير عنه، أو بتعبير أدق صعوبة التنوع في الموضوع ليؤدي غرضه منه، خاصة ان شاعرنا لم يسلك السبيل المباشرة للحديث عن موضوعه، لأنه لا يستطيع الإفصاح عن شغفه بعلاقة رفضها الإسلام، ووقف منها موقفاً صارماً.

وتأتي صعوبة التنوع في الموضوع في البحث عن سبل كثيرة للحديث عن قضية واحدة، والوصول بها إلى حلّ يكاد يكون في الكثير منها حلا واحداً، بل إنه الحل الوحيد أمامه الذي لا خيار غيره، والذي يخضع لتقلبات الشاعر النفسية، ما يضفي عليه صفة التوتر والاضطراب. ومن هذا التنوع في الموضوع أن ابن مقبل اتخذ من رحيل الظعائن عن الديار سبيلاً يكنّي بها عن فراقه دهماء، ويقابل حالة بحالة أخرى وذلك في سياق حوار جعله بينه وبين صاحبه، الذي أخذ يدعوه إلى مراقبة حركة تنقّل الظعائن في الأماكن التي يذكرها، فيطمئنه هذا الصاحب الى أنها ما زالت على مد بصره، يراها ليلاً تتنقّل بين "تِبراك"(110) و"طِلْحام"(111)؛ فيقول(112):

تَأملْ خَلِيلي هلْ تَرى مِن ظَعائِنِ
تَحملْن بِالْعلْياءِ فَوقَ إطان
فَقَالَ: أراها بين تِبراك موهِناً
وطِلْحام إذْ عِلْم البِلادِ هدانِي

ويبدو واضحاً من هذا الحوار أن شاعرنا أراد أن يشير إلى فراقه دهماء، هذا الفراق الذي لم يزده إلاّ تعلّقاً بها، وشوقاً إليها، فعبر عن هذا الشوق المستبد به، وعن ذلك الحنين الذي يحيي روحه، وينعش حياته، بالأمل الذي يستمده من حاسة البصر(113)، وهو ما يزال يراها تتنقّل بين هذين المكانين اللذين ذكرهما. ولم يكن الشاعر ليذكر "تِبراك" ذِكْراً عفوياً أو عرضاً إلا لعلمه أنه ماء، وفي تصوره أن دهماء تقيم فيه إقامة هانئة تمد بصره بأسباب من الأمل يحيا عليها، ولذلك ربط الشاعر بين رؤيته لدهماء في ثوب الظعن، وبين هذا الموضع ليعبر عن تلك الحياة التي أملته إياها دهماء، والتي تعيش في أجوائه الداخلية قبل أن يقرر في البيت التالي أنه قطع صلته بالظعائن بالنظر إليهن؛ إذ مضى الحداة بهن مضياً سريعاً، فلم يعد يراهن. وحسبي أنه أراد أن يعبر بذلك عن الموقف الصارم الذي وقفه الإسلام من زواجه بدهماء؛ فيقول مشيراً إلى خليله(114):

وقَد أفْضلَتْ عينِي على عين عينِهِ
وقَطع إلْحاقُ الحداةِ قِرانِي
تَحملْن مِن جنان بعد إقامةٍ
وبعد عنَاءٍ مِن فُؤَادِك عانِي

وعلى الرغم من موقف الإسلام من علاقته بدهماء، إلاّ أنه لم ينس هذه الزوجة المحبوبة أبداً، فهو ما زال يلهج بذكرها في الكثير من قصائده، ويحن إليها حنيناً وجد فيه حياته، ولذلك تابع حركة الظعائن وتنقّلها من مكان لآخر، تتابعاً تعمد فيه ترحيلها إلى الأماكن التي تكثر فيها المياه، وهو لا يكتفي أحياناً بالهبوط بها من أعالي الجبال إلى بطون الأودية ينحدر بها انحدار الماء يجري من الأعلى إلى الأسفل، وإنما أخذ يعرج بها على المواضع التي تتعدد أماكن المياه فيها وتكثر حتى تغطي نُقَر الصخور، وكأن الظعائن أداة بيد الشاعر يحركها كيفما شاء، ويرحلها إلى الأماكن التي يقصد إلى إظهارها إظهاراً يحيي في داخله الحياة التي ينشدها في حبه لدهماء؛ فيقول(115):

سلَكْن لُكيزاً بِاليمِين، ولَوزةً
شِمالاً، ومفْضى السيل ذِي الغَذَيان(116)
فَصبحن مِن ماءِ الوحِيدين نُقْرةً
بِميزان رعمٍ إذْ بدا ضدوان(117)
وأصبحن لَم يتْركْن مِن لَيلَةِ السرى
لِذِي الشوقِ إلا عقْبةَ الدبران

ولعل الأبيات التالية تلخّص ما ذهبنا إليه من أن ابن مقبل لم يكن يصرح بعلاقته بدهماء، وإنما كان يخفي أمره ويكنّي عنها؛ فيقول(118):

فَهلْ يبلِغَني أهلَ دهماء حرةٌ
وأعيس نَضاح القَفَا مرجان
لَقَد طَالَ عن دهماء لَدي وعِذْرتِي
وكِتْمانُها أكنِي بِأُم فُلان
جعلْتُ لِجهال الرجال مخاضةً
ولَو شِئْتُ قَد بينْتُها بِلسانِي

القسم الثاني: دور المياه في معالجة أزمات الشاعر في قصائد ذات حلول فلسفية:

أ – قصائد ذات موضوعات متنوعة:

فإذا كانت بغيتنا في الحديث عن المياه في شعر ابن مقبل – من خلال حديثنا عن النماذج الشعرية التي عرض شاعرنا فيها أزماته – قد وصلت إلى ما وصلت إليه، فهل نحقّق النتيجة ذاتها في عرض نماذج شعرية أخرى تختلف موضوعاتها عن الموضوعات السابقة، أو بمعنى أدقّ هل يعرض ابن مقبل أزماته فيها عرضاً يحاول فيه حلّها على النحو السابق؟

إن سلوك مثل هذا الطريق – للوصول إلى نتيجة مشابهة أو مغايرة – شاق وصعب، وتأتي صعوبته من كثرة الموضوعات التي حاول ابن مقبل أن يعالج فيها قضيته، ومن ثَم اختيار نماذج معينة منها اختياراً يفي بالغرض، والإضراب عن نماذج أخرى مع الإشارة ما أمكن إليها إشارة موجزة. ويعود السبب في اتباع هذا المنهج الانتقائي الذي يختلف عن المنهج السابق، الى أن النماذج السابقة كانت نماذج واضحة الدلالة على الأزمات الثلاث التي كان يعاني منها ابن مقبل، بصرف النظر عن الأسلوب الذي اتبعه في عرضها أو محاولة حلّها، أما النماذج التالية فإن أزماته الثلاث لم تظهر فيها على النحو الذي ظهرت فيه في سابقاتها، وإنما ظهرت على نحو آخر فلسفها فيه فلسفة أظهرت أن في حياته نقصاً واضحاً يخيم عليها؛ فأقام جدليات مختلفة بين متضادين، وأنواعاً من الصراع انتهت جميعها به إلى حبه للحياة، هذه الحياة التي حقّقها له جريان المياه في مواضع متفرقة في قصائده.

فإذا كانت النماذج السابقة – في تقديرنا - نماذج تقليدية في عرض قضايا شاعرنا، جاءت النماذج التالية تحمل شيئاً من المضمون السابق ولكن بمعالجة جديدة، مجيئاً يجعلنا نقف على الأسلوب الواعي للشاعر الذي يعي فيه حجم قضاياه وأسلوب معالجته لها؛ إذ ينظر فيه إلى قضاياه نظرة خاصة مفلسفاً إياها، فلسفة عم فيها على تلك القضايا التي حزبت عليه في شيخوخته وإسلامه؛ فهو يعالج موضوعه في أحد النماذج التي تُظْهر حالته النفسية على أنه نوع من الصراع، يمكن تسميته صراع البقاء أو صراع الوجود من أجل الحياة، ويعتمد هذا النوع من الصراع على القوة؛ إذ البقاء للأقوى، ولكن هذا البقاء لن يكتب له الحياة إلاّ إذا استخدم الكائن الحي وسيلة الحياة ومادتها، وهي هذه المياه التي يذكرها الشاعر ذِكْراً متعمداً في ثلاث حلقات، كل حلقة منها تفضي إلى الأخرى، وتتصل بها اتصال رحلة الإنسان في صراعه لأجل الحياة، على أن هذا النوع من الصراع قد يكلّف الإنسان(119) جهداً مضنياً ينعكس على نفسه بالألم في أوله، وبالظفر في نهايته ظفراً معنوياً.

فالشاعر يجن جنونه ويصبح كمن أصابه الصرع، عندما تركته الصاحبة ورحلت إلى "الإوانة"(120)، حيث المياه والحياة التي تنعش الوجدان وتحرك أرجاء المكان، رحيلاً أحزنه وشغل قلبه؛ فيقول(121):

كأنني يوم حث الحادِيان بِها
نَحو الإوانَةِ بِالظاعون مَتْلُولُ
يوم ارتَحلْتُ بِرحلِي دون برذَعتِي
والقَلْب مستَوهِلٌ بِالبين مشْغُولُ

وإزاء هذه الحالة التي ألمت بالشاعر لم يكن أمامه من سبيل لمعالجة نفسه، لتعود إليه الحيوية إلاّ أن يمتطي ناقته فيلحق بالركب؛ فيقول(122):

ثُم اعْتَرزتُ على نِضوِي لأبعثَه
إثْر الحمول الغَوادِي وهو معقُولُ

وعبر معاناة الشاعر في هذه الرحلة بين البكاء والألم في تذكّر الأحبة، ومحاورة النفس في رحيلهم، كما يذكر في قوله(123):

فاستَعجلَتْ عبرةٌ شَعواء، قَحمها
ماء، ومالَ بِها فِي جفْنِها الجولُ
فَقُلْتُ: ما لِحمول الحي قَد خَفِيتْ
أكل طَرفِي، أم غالَتْهم الغُـ ولُ؟
يخْفَون طَوراً، فأبكِي، ثُم يرفَعهم
آلُ الضحى والهبلاتُ المراسِيـ لُ

وصل ركب الصاحبة إلى "الشهلاء"(124) فحالت بينهم وبين الشاعر، فأخذوا حينئذٍ – وقد خلا لهم المكان، وأمنوا ملاحقة الشاعر – ينعمون بمياهه يطفئون بها حر الهاجرة، ويعيدون بها لأنفسهم النشاط والحيوية، مستأثرين بهذه المياه وحدهم؛ فيقول(125):

حتى إذا حالَتِ الشهلاء دونَهم
واستَوقَد الحر قالُوا قَولَةً: قِيلُوا

فلما تقطعت السبل بالشاعر ولم يستطع اللحاق بهم، وكان هو الأضعف في رحلة الصراع للحصول على المياه لأجل

الحياة، عبر عما صار إليه بقوله(126):

لَم يبق مِن كَبِدِي شَيئاً أعِيشُ بِهِ
طُولُ الصبابةِ والبِيض الهراكِيلُ

ونظراً لما يعتور الشاعر من نهاية مؤلمة، فقد سحب هذا النوع من الصراع على بقرة الوحش التي أكل السبع ولدها، يقابل حالته بحالة أخرى في الوجود، ليدل على أن الصراع سنّة الحياة، وأنه يشمل الكائنات جميعها. فمن وجه انه رأى نفسه تقابل بقرة الوحش وهي الأضعف في هذا الصراع، وأن ركب النساء يقابل الذئب وهو رمز القوة في هذا الصراع أيضاً، وان المياه المتنازع عليها بين فريقين تقابل ولد البقرة المتنازع عليه بين أمه والذئب، وانتهى الصراع بظفر الذئب به، فقال الشاعر يذكر ذلك في سياق التشبيب بصاحبته(127):

كأنها حِين ينْضو النوم مِفْضلَهـا
سِبِيكَةٌ لَم تُنَقصها المثَاقِـيـ ـلُ
أو نَعجةٌ مِن إراخِ الرمل أخْذَلَهـا
عن إلْفِها واضِح الخَدين مكْحولُ
قالَتْ لَها النفْس: كُونِي عِنْد مولِدِهِ
إن المسيكِين إن جاوزتِ مأكُولُ
تَعتـاده بِفُـؤادٍ غَيـ ـر مقْتَسـمٍ
ودِرةٍ لَم تَخَونْهـا الأحالِيـ ـلُ
حتَى احتَوى بِكْرها بِالجو مطرد
سمعمع أهرتُ الشدقَين زهلُـولُ
شَد المماضِغَ مِنْه كُل منْصرفٍ
مِن جانِبيهِ، وفِي الخُرطُومِ تَسهِيلُ

وقد عبر الشاعر عن ظفر الذئب بأنه أخذ يعدو في المفاوز عدواً شديداً، ليصل إلى منهله في أعلى الجبل فيشرب ماء الحياة من تلك الأحواض القديمة؛ فيقول(128):

يطْوِي المفاوِز غِيطاناً، ومنْهلُه
مِن قُلةِ الحزنِ أحواض عدامِيلُ

وهذه النهاية التي انتهى إليها الذئب، هي النهاية نفسها التي انتهت إليها النساء عند مياه "الشهلاء".

فإذا أنعمنا النظر في هذه القصيدة من خلال شبكة العلاقات بين الأبيات، استطعنا أن نذهب في تأويلنا مذهباً يصل بنا إلى الأزمات الثلاث لابن مقبل، فنجد أنه كنّى عن دهماء التي فارقته بالظعائن التي رحلت عن الديار، وكنّى عن نعيم الجاهلية الذي نَعِمه بالمياه التي بعثت الحياة في "الشهلاء"، وكنّى عن لحاقه بركب النساء وعدم ظفره بمراده، بدخوله في الإسلام وعدم قدرته على العودة إلى ما كان عليه، أو بدخوله في الشيخوخة وعدم استطاعته العودة إلى الشباب.

وقد يأخذ الصراع في قصائد ابن مقبل منحى آخر يتجاوز الفريقين إلى الشاعر نفسه فقط، ويجعل سبب هذا الصراع السبب نفسه الذي ذكره سابقاً، مضيفاً إليه ما يخرجه من نطاق الفردية والذاتية إلى حيز الجماعة واهتمامها، وهذا السبب هو رحيل صاحبته وقومها رحيلاً دائباً إلى المواضع التي يذكرها في الصيف والربيع، وما يخلّفه هذا الرحيل من التعلق الشديد بها، تعلّقاً تتنازعه قلة الموارد الاقتصادية في القبيلة من الماء والطعام، فالشاعر يرى أن قبيلته تقيم في فصل الصيف آمنة مطمئنة حول الآبار والأبنية التي يصنعها الناس، يشربون الماء العِد(129)، فلا يفارقونه حتى يقع ربيع بالأرض؛ فيقول(130):

لِلْمازِنيـةِ مصطـافٌ ومرتَـبـع
مِمـا رأَتْ أُود فَالمِقْـراةُ فالجرع
مِنْها بِنَعفِ جرادٍ فالقَبائِـضِ مِن
ضاحِي جفافٍ مرى دنْيا ومستَمع(131)

فإذا وقع الربيع توزعتهم النجع، وتتبعوا مساقط الغيث يرعون الكلأ والعشب، ويشربون الكَرع(132). ويعود السبب في رحيل القبيلة عن ديارها إلى نقص المياه فيها أيام القيظ؛ إذ بلغ نقصها حداً لم تستطع النساء تحمله من العطش كما يذكر ابن مقبل في موضعين من قصيدته؛ فيقول(133):

هاجوا الرحِيلَ وقَالُوا: إن مشْربكُم
ماء الذنابِين مِن ماوِيةَ النزع(134)

ويقول يصف النساء(135):

بِيض، ملاوِيح يوم الصيفِ، لا صبر
على الهوانِ، ولا سود، ولا نُكُع(136)

وإلى نقص الطعام وحلول زمان الشدة والضيق، بحيث اضطرت إلى البحث عن موارد مائية أخرى في الغدران(137)؛ فقال يكنّي عن ذلك(138):

يا بِنْتَ آل شِهـابٍ هلْ عِلِمتِ إذا
أمسى المراغِثُ فِي أعناقِها خَضع

فلا يزالون في النجع إلى أن تَنِش الغدران، فيرجعون إلى محاضرهم(139) على أعداد المياه، وهي محاضر شتى؛ فيقول(140):

حي محاضِرهم شَتى، ويجمعهم
دوم الإيادِ وفاثُور إذا انْتَجعوا

وبين الصورة الأولى والصورة الثانية، أي بين الاستقرار والرحيل، يقوم الصراع في نفس الشاعر قياماً عماده السكون مرة، والاضطراب مرة أخرى، ففي الصورة الأولى كانت نفسية الشاعر نفسية هادئة مطمئنة، والدليل على ذلك أنه لم يبدأ قصيدته بطلل دارس وآثار بالية، وأن المياه كانت حولهم ينعمون بها في محاضر شتّى، ولكن عندما نضبت المياه في الغدران وجفّت وحل الجدب في الصورة الثانية، ساءت نفسية الشاعر كما يذكر في قوله(141):

نَاطَ الفُؤَاد مَناطاً لا يلائِمه
حيان: داعٍ لإصعادٍ ومنْدفِع

ولأن انتجاعهم كان في وقت سيتولّد عنه افتراق في وقت آخر؛ فيقول(142):

لا يبعِد اللهُ أصحاباً تَركْتُهُم
لَم أدرِ بعد غَداةِ البين ما صنَعوا

وفي ظني أن الشاعر أراد من هذا الصراع الذي أسميته صراع البقاء من أجل الحياة أن يثبت أمرين، الأمر الأول منهما: أراد أن يبين قيمة الماء في الاستقرار وفي الحياة، وانعكاس أثر هذه القيمة على نفسية قومه. والأمر الثاني: أراد أن يتوصل من الصورة الثانية بما فيها من الجدب والقحط، إلى الفخر بنفسه وبقومه بالكرم في إطعام الناس اللحم(143)، لينفذ من ذلك كله إلى المزايا الأخرى التي يتمتع بها قومه؛ فيقول – من أبيات - يخاطب بنت آل شِهاب في البيت السابق(144):

اني أُتَمم أيساري بِذِي أوِدٍ
مِن فَرعِ شَيحاطَ صافٍ لِيطُه قَرِع
يحدو قَنَابِلَهم شُعثٌ مقَادِمهم
بِيض الوجوهِ، مغَالِيقُ الضحى، خُلُع
إلَى الوفَاءِ، فَأدتْهم قِداحهم
فَلا يزالُ لَهم مِن لَحمةٍ قَرع
يا بِنْتَ آلِ شِهابٍ هلْ عِلِمتِ إذا
هاب الحمالةَ بكْر الثلةِ الجذَع
أنا نَقُوم بِجِلانا، ويحمِلُها
مِنا طَوِيلُ نِجادِ السيفِ مطِلع
يا أُخْتَ آلِ شِهابٍ هلْ عِلِمتِ إذا
أنْسى الحرائِر حسن اللبسةِ الفَزع
أنا نَشُد علَى المِريخِ نَشْرتَه
والخَيلُ شَاخِصةُ الأبصار تَنتزع
وهلْ عِلِمتِ إذا لاذَ الظباء، وقَد
ظَل السراب علَى حِزانِهِ يضع
أني أُنَفر قَاموص الظهيرةِ، والـ
ـحِرباء فَوقَ فُروعِ الساقِ يمتَصِع

فإذا تأولنا مراد ابن مقبل من إثبات هذين الأمرين تأويلاً يصل بنا إلى غايته منهما، تبينّا أنه كنّى عن حاجته إلى الاستقرار وحب الحياة بحاجة قومه إليهما معاً، يؤيد ذلك أننا ذهبنا في تأويلنا بعداً يقودنا إلى القول: إن ابن مقبل رأى في الفخر الذي فخره حياة له من نوع آخر تعزز قيمته وتريح نفسه. وبذلك تستبين لنا دون مراء الصورة التي عالج ابن مقبل فيها أزماته مخالفاً في هذه المعالجة صورتها في النماذج السابقة، عندما وظّف المياه توظيفاً يخدم أزماته في نماذج ارتبطت موضوعاتها ارتباطاً مباشراً به وبأزماته، في حين وظّف المياه في هذين النموذجين توظيفاً يخدم أزمات غيره وصولاً إليه، بمعنى أنه وارى الحديث عن أزماته وعن غرضه من ذِكْره المياه وراء معالجته الجديدة لموضوعه.

ويتضاءل دور المياه في الحياة الخاصة لابن مقبل، عندما يستخدم أسلوب السرد المباشر في الفخر بنفسه(145) في إطار القبيلة التي يعمل من خلالها(146)؛ إذ يكون الحديث عن مواردها المائية من خلال إشادته بنفسه وبشجاعته وجرأته في ارتياد أماكن المياه التي تركها أهلها، ونزحوا لمخافة عنها إلى البادية(147).

ب – قصائد ذات موضوع واحد:

1 – الرثاء:

فإذا استبانت لنا رؤية ابن مقبل في توظيف المياه في معالجة أزماته في قصائد ذات موضوعات متنوعة(148)، كان الهدف منها إظهار نفسية الشاعر على النحو الذي فصلناه، وكان سهل على شاعرنا أن يعِد هذه الموضوعات إعداداً يستوعب أفكاره وتصوراته، لينفذ منها إلى أزماته وحلّها بعد، فإذا كان الأمر كذلك فهل يوفّق ابن مقبل إلى هذا المنهج في قصائد لها خصوصية معينة، كأن تكون ذات موضوع واحد هو الرثاء، أو يكون موضوعها منتزعاً من إحدى الحروب، بحيث ننصفه في طبقته(149) وفي اقتداره على نظم الشعر(150)، إنصافاً يعفينا من بسط الحديث فيه في هذا الموضع، لأنه يخرجنا عن إطار هذا البحث، وخصوصية موضوعاته إلى موضوعات أخرى؟

ففي حسباننا أنه يصعب على الشاعر أن ينزع هذه الموضوعات من أجوائها العامة التي قيلت فيها، إلى أجواء خاصة به ترتبط بحالته النفسية، ولكن هذه الصعوبة تتبدد إذا أدركنا قدرة ابن مقبل على الجمع بين الأمرين؛ ففي قصيدته التي رثى بها عثمان بن عفان – وكان عثماني الهوى – قد أرضى الرأي العام بهذه المرثية وأرضى نفسه، ذلك لأنه أفرد مساحة لا بأس بها لرثاء هذا الخليفة رثاء صريحاً(151)، وأفرد مساحة أخرى تشير إليه نفذ منها حسب تأويلنا إلى قضاياه الخاصة وتصوراته لمعالجتها، فقد أشار في مطلعها إلى خلو الديار من أهلها بما فيها "عسفان"(152)، بسبب الحروب التي جرت فيها، وأدت إلى مقتل هذا الخليفة الراشدي. وفي ظنّي أن الشاعر أراد أن يقيم في كل من الطلل والرثاء جدلية الموت والحياة، فقدم لموضوعه بالحديث عن الديار التي عفَتْ وخلت من أهلها، ليرمز إلى الموت ممثلاً بمقتل عثمان بن عفان، وإلى الخراب والدمار الذي خلّفته الحرب، ولكن الشاعر لم يطق هذه الصورة التي رسمتها له مخيلته من الهدوء المنطوي على حجارة صماء ورسم داثر، فأراد أن يبعث الحياة فيه، وأن يجدد الوجود بالحس والحركة فأتى على ذِكْر "عسفان"، فإذا المياه تملأ الآبار والحياض فيه، وتغسل آثار الدماء؛ فيقول(153):

عفَا بطِحان مِن قُريـشٍ فَيثْـرِب
فَملْقَى الرحال مِن مِنًى فَالمحصب
فَعسفـان، إلا أن كُـل ثَنِيـَـةٍ
بِعسفَان يأْويها مع الليـل مِقنَـب
فَنِعفُ وداع فَالصفَـاح فَمكـ ـةٌ
فَلَيس بِها إلا دِمـاء ومحـ ـرب

وأما الرثاء – وهو موضوع القصيدة – فهو في دلالته العامة بكاء الميت، بكاء يلعج القلب من حرقته حزناً على فَقْده وعدم عودته، وهو في دلالته الخاصة مدح الميت مدحاً يحيي ذِكْره على كل لسان. وبذلك يكون الشاعر قد وفق – في هذه القصيدة – بين موضوع الرثاء وبين التقديم له في إقامة جدلية متعادلة في كلا اللوحتين، هي جدلية الموت والحياة متخذاً من طرفها الأول وهو الموت رمزاً يرمز به في اللوحتين معاً إلى دخوله في الإسلام، وما ترتّب على هذا الدخول من موت الحياة الجاهلية والبكاء عليها، ومتخذاً من طرفها الثاني وهو بعث الحياة في الطلل رمزاً يرمز به في اللوحة الأولى إلى حياة الجاهلية ونعيمها، ومن إحياء ذكرى الميت رمزاً يرمز به في اللوحة الثانية إلى إحياء حبه لدهماء إحياء تعيش ذكراه في نفسه.

2 – الحـ ـرب:

أما الموضوعات الأخرى التي جمع فيها شاعرنا بين الحالة العامة وحالته الخاصة، وفلسف فيها نظرته إلى أزماته فلسفة أبانت مقدرته الشعرية على هذا الجمع، وأظهرت فهمه للحياة بأن الحياة للأقوى إظهاراً قد يكون مجاراة للواقع وللظروف الجديدة التي طرأت عليه؛ فهي الموضوعات التي قالها في الحروب(154)، فهو في النموذج التالي ينقل نقلاً واضحاً جانباً من الحرب التي جرت بين قومه بني عامر وبين بني أسد، فيقول(155):

ونَحن قَتَلْنَا القَوم لَيلَـةَ أحجمـتْ
هِلالٌ، وقَالَتْ: حرزوا، وانْظُروا غَدا
بِجمعِ بِني عمرٍو فَبيتَ جمعهـم
بِني أسدٍ فِيمـن غَـ ـذَا وتَجنّـ ـدا

إذ كانت ساحة الوغى فيما يذكر الشاعر في تلك المساحة الممتدة بين الجبل "أسود"(156)، وبين الماء "أُوذ"(157) في انحدار الجبل من الأعلى إلى الأسفل؛ فيقول(158):

كَأنك لَم تَشْهد قَنَـابِلَ خَيلِنَـ ـا
إِذِ الدين هرج قَبلَ أن يتَعبـدا
ومأْخَذَها الكِنْدِي بين لَهازِمِ الـ
ـعدو بيـن أُـوذٍ وأسـودا

وقد ذكر الشاعر "أُوذ" في هذا الموضع ليجانس بين ما أراده هنا، وما أراده في البيت الأول بين البداية والنهاية، أي بين مسيل الماء ومصبه، فقد أشار فيه إلى أن هذه الدار – وهي دار الشاعر – تقع في مكان مرتفع عن السيل، فالسيول لا تعلوه، وإنما تميل عنه وتسيل من جوانبه؛ فيقول(159):

أمِن رسمِ دارٍ بِالجنَاحِ عرفْتَها
إذا رامها سيلُ الحوالِبِ عردا (160)

وحسبي أن الشاعر أراد بالسيل الحرب، وحوالب السيل حوادث الحرب من القتل وإراقة الدماء، وعلى هذا المعنى يكون تأويل البيتين: أن الدار تقع في أعلى الجبل بعيدة عن الحرب ومجرياتها، وإنما الحرب في المنطقة التي تلي قمة الجبل، ولهذا التحديد دلالته على أن الدار متحصنة بشموخ المكان وببسالة الرجال في الدفاع عنها، دفاعاً أدى إلى أن يعملوا المشرفية في أجساد العدو وإلى إراقة دمائهم؛

فيقول(161):

فَبِتْنَا نُعِيد المشْرِفيـةَ فِيهـم
ونُبِدِىء حتى أصبح الجون أسودا

بحيث ترى في هذا الوقت جثث القتلى تترامى على سفح الجبل، تجري دماؤهم من كل ناحية عليه جريان روافد النهر لتصب في "أوذ"؛ إذ القرار النهائي لها. واستقرار الدماء في "أوذ" إشارة كنّى بها الشاعر عن الحياة التي انبثقت من الموت الأحمر، فكانت الحياة للأقوى؛ موتاً لفريق، وحياة لفريق آخر.

ولا شك في أن هذه النتيجة التي وفق الشاعر في الوصول إليها، إنما جاءت من اختياره لموضوع الحرب اختياراً لاءم نفسيته المتّقدة بنار الهوى، هذه النفسية التي انتهى الشاعر بها إلى التعلق بدهماء تعلّقاً وجد فيه روح الحياة؛ إذ القرار النهائي في الماء.

الخاتمـة

لقد كان اختيار ابن مقبل للمياه بدلالتها على الحياة والحيوية والنشاط، للتخفيف من شدة أزماته عليه، اختياراً موفقاً بعض الشيء من الناحية المعنوية لا العملية، وذلك يعود لأمرين هما:

الأمر الأول: أن ابن مقبل كان يدرك إدراكاً تاماً وواعياً أنه لن يستطيع حلّ أزماته حلا عملياً من الناحية الفعلية، لأنه لا يستطيع إعادة الزمن إلى الوراء، أو اختزال بضع سنوات من عمره اختزالاً يعيده إلى الحياة الجاهلية، وإلى ما كان يتمتع به في ظلّها من شباب وحب، لذلك كان توظيفه للمياه في معالجة أزماته على النحو الذي رأيناه طريقاً وجد فيه ضالته وجوداً حيوياً.

والأمر الثاني: أنه استطاع في توظيف المياه لتدل على معنى الحياة أن يعزي نفسه بعض التعزية عن كل ما فَقَد، وأن يسلّيها من همها تَسلية حافظت على ثباته العقلي من الوله(162) والضياع، وهو أمر تبينّاه من دراسة قصائده دراسة دقيقة؛ إذ لم نجد فيها ما يشير إلى عكس ذلك.

فإذا كنّا قد حكمنا على اختيار ابن مقبل للمياه في معالجة أزماته أنه اختيار موفّق بعض الشيء، فإنما يعني ذلك أنه موفّق في استخدام الوسيلة لغاية، وليس للوصول إلى نتيجة لا يترتّب عليها الحلّ الحقيقي لأزماته. أما الوسيلة فهي توظيف المياه بالدلالة التي أشرنا إليها ليصل من خلالها إلى غايته في الحياة، وهي إراحة نفسه راحة معنوية بالأساليب التي اتّبعها في ذلك.

فإن قيل: إن النماذج السابقة أظهرت شيئاً من اضطرابه وتقلّباته، فكيف يمكن أن تتفق هذه النتيجة مع ما ذهبنا إليه من الحكم على اختياره للمياه، انه اختيار موفّق بعض الشيء في معالجة أزماته؟ وبمعنى أوضح، كيف وصل ابن مقبل إلى غايته التي كان ينشدها في قصائده، وهي السعي لتهدئة نفسه – من توظيف المياه على معنى الحياة – ما يتفق مع هذه النتيجة؟

كان الجواب: ان النماذج السابقة أظهرت وضعين نفسيين لشاعرنا هما: القلق والاضطراب من ناحية، والهدوء وراحة النفس من ناحية أخرى. أما القلق والاضطراب فعلى الأرجح أنهما كانا يظهران عند شاعرنا من شوقه إلى الحلّ الحقيقي لأزماته، فعندما يتعذّر عليه هذا الحل تضطرب نفسه ويتحير في شوقه، والدليل على ذلك أنه كان ينوع في اختياره لأصناف المياه في معالجة أزماته، فيختار منها في هذه الحالة المياه الكَدِرة والحوض الداثر والماء الضحل، ليصف بها حالته النفسية عندما تشتد أزماته عليه، وتتأزم الظروف المحيطة به.

يضاف إلى ذلك أن ابن مقبل لم ينتقل من الشباب إلى الشيخوخة فجأة بين عشية وضحاها، وإنما مر بمراحل من الشيخوخة حتى وصل إلى حالة من الهرم الحقيقي(163)، التي لا يملك حيالها إلاّ الاعتراف بها اعترافاً كان يسوءه، ويجعله يرى أن منيته دنت منه؛ فيضطرب لذلك، ويغتم له غماً حزيناً حتى لجأ – في بعض قصائده - إلى تقليل مياهه للتعبير عن حالته هذه.

أما في المراحل الأولى من شيخوخته فيبدو أن الشاعر ما زال يملك نفساً قوياً يقارع به تقلّبات الزمان، والتغيرات التي طرأت عليه بدخوله في الإسلام؛ ذلك لأنه لم يطل العهد به في الابتعاد عن الحياة الجاهلية ومفارقته دهماء، ولم تتمكّن الشيخوخة منه بعد، وإن كانت هذه المراحل الأولى من أهم المراحل الحاسمة في حياته، لأنها قلبتها رأساً على عقب، فكان من الصعب عليه أن يتخلّى عنها مرة واحدة، بعد أن ملَكت عليه نفسه وحياته، فلم يجد بدأ – والوضع كذلك – من التشبث بالماضي بكل ما فيه، والإبقاء عليه ولو في ذاكرته ونفسه، وهذا أمر طبيعي ومتوقع لمن في مثل حاله ومر بما مر به، بل هو شأن المحزون، وشأن الأسير المكبل بقيود

الحاضر؛ فأخذ يلوذ إلى الماضي، ويحلّق في الأجواء المحيطة به، لعلّه يخفف عن نفسه بعض عنائها؛ لأن ابن مقبل لا يملك في ظروفه الحالية إلا تذكّر الماضي[164] بكل ما فيه من جمال وحب، فلم يجد ما يحقّق له هذه الذكرى، وينعش وجدانه بها، ويبعث الحيوية في نفسه إلاّ الحديث عن المياه، حديثاً مرتبطاً ارتباطاً مكنياً بدلالته على الحياة والحيوية والنشاط، وغير ذلك من المفاهيم التي تحمل هذا المعنى؛ فاختار المياه الصافية ليدلّ بها على حيوية الشباب، ونزوعه إلى هذه الحياة، وصفاء الحياة أيام الشباب وهو ينعم بوصال الأحبة. وربط المياه بالطلل، وأنزل المطر من السحاب مثيراً به الغدران المغمورة بالتراب، ورحل الظعائن إلى أماكن المياه كل ذلك لينعم نفسه وبصره بجريان المياه من حوله، فيشعر بانتعاش الحياة في الأجواء المحيطة به، انتعاشاً يجدد الحيوية في داخله ويحيي حبه لدهماء. وأقام أنواعاً من الصراع كصراع الوجود من أجل الحياة، وجدلية بين متضادين هما الموت والحياة انتهت جميعها به إلى حبه للحياة. وسخّر بعض الموضوعات العامة كالموضوعات التي قيلت في الحروب لخدمة قضاياه خدمة أظهرت فهمه للحياة بأن الحياة للأقوى.

وقد وفّر ابن مقبل في الحديث عن مياهه من الأساليب البلاغية كالكناية والمقابلة وكذلك الرمز، ومن العناصر الموضوعية التي تضافرت معاً من خلال شبكة العلاقات بين الأبيات في القصيدة الواحدة، ما يعينه على الوصول إلى غايته التي أرادها من توفير عنصر المياه في قصائده في التعبير عن أزماته، وسعيه لمحاولة حلّها.

على أن جميع ما ذكرناه عن حالتَي ابن مقبل النفسيتين، لا نملك عليهما دليلاً زمنياً يستند إلى ترتيب قصائده حسب مراحل عمره، إلاّ ما كان من إشارته فيهما إلى الشيب والشباب وبكاء الجاهلية، ولذلك فإن ما ذهبنا إليه من حديث فيهما يندرج تحت المنهج الذي اتّبعناه في هذا البحث، والذي يقوم على الاحتمال والتأويل.

الهوامش

(1) انظر مثلاً ابن الكلبي، جمهرة النسب 28:2 – 30، 50 – 51، 212:3، وابن سلاّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء: 150، وابن حبيب، المحبر: 326، والجاحظ، البيان والتبيين 239:1 – 240، 37:4، وابن قتيبة، الشعر والشعراء: 332 – 334، وابن قتيبة، المعارف: 587، وثعلب، مجالس ثعلب: 363 – 364، 413، وابن دريد، الاشتقاق: 12، 25، 54، 70، 297، 299، وابن دريد، جمهرة اللغة: 775، والقالي، الأمالي 15:1، 18، 94، 229، 233، 257، 41:2، 42، 101، 152، 164، 213، والمرزباني، الموشح: 100، وابن النديم، الفهرست: 86، 178، والعسكري، ديوان المعاني 161:2، والمعري، رسالة الغفران: 237، والحصري، زهر الآداب: 54 – 55، وابن حزم، جمهرة أنساب العرب: 288، 480، 483، وابن رشيق، العمدة 52:1، 97، 305، 308:2، والبكري، سمط اللآلي: 66- 68، 152، 205، 207، 293 – 294، 337، 668، 687، 732 – 733، 775، 832 – 833، والبكري، معجم ما استعجم: 131، وياقوت الحموي، معجم الأدباء 55:19، وابن حجر، الإصابة 311:1 – 312، والبغدادي، خزانة الأدب 231:2 – 233، وكحالة، معجم قبائل العرب 758:2.

(2) والتي جاءت بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وما كان من نزاع مرير بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في صفّين. انظر ابن مزاحم، وقعة صفين: 524 – 527.

(3) إلا ما كان من رده على النجاشي الحارثي في قصيدة ينقض فيها قوله، وكان النجاشي ذكر معاوية بن أبي سفيان، وفراره من الحرب في صفّين، وهجا قيس عيلان وعامراً قوم ابن مقبل وسائر القبائل التي كان ميلها مع معاوية على علي، وفخر بقومه وباليمانية عامة. (انظر ابن مقبل، ديوانه: 237 – 243، وابن مزاحم، وقعة صفّين: 526 – 527). وكان ابن مقبل رثى – من قبل – عثمان بن عفان رضي الله عنه ونادى بالثأر له، فقد كان عثماني الهوى يميل ميل الأمويين مع قومه بني عامر. (انظر ابن مقبل، ديوانه: 30 – 36).

وما كان من رده على الأخطل التغلبي في قصيدة ينقض فيها هجاءه للقيسية إثر هزيمتهم في وقعة مرج راهط، وكان الأخطل أقذع في هجائه لهم، وهزأ بقيس عامة، ورهط ابن مقبل بني العجلان خاصة، فتصدى ابن مقبل للأخطل وقومه التغلبيين. انظر المصدر السابق: 91 – 94، وكذلك ص: 222 – 224 يهجو الأخطل، ورائية الأخطل، شعره: 135 – 143.

(4) انظر ما ذكره صاعد الأندلسي في طبقات الأمم: 57 – 58، وابن العِبري في تاريخ مختصر الدول: 158 – 159 عن تنقّل أهل الوبر – وهم قطان الصحاري وعمار الفلوات – في الأماكن، وانتجاعهم النجع أيام الربيع ثم عودتهم إلى محاضرهم على أعداد المياه زمان الصيف والقيظ. وانظر كذلك ابن منظور، لسان العرب:(بدا)، (حضر)، (نجع)، والجبوري، الشعر الجاهلي: 57، 76 –

77، 78 - 79.

(5) ابن مقبل، ديوانه: 6، وانظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 332، وياقوت الحموي، معجم البلدان، 82:2، وأبا جارور، تميم بن أبي ابن مقبل حياته وشعره: 31، وحداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 2.

(6) فهذا أمر تعرض له غيري من قبل. انظر أبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 1 – 36، وحداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 1 – 2، وعامراً، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 48 – 93، وعبد، ابن مقبل حياته وشعره: 6 – 7، 17، 22 – 24، 32 – 68.

(7) باستثناء عمرو بن كلثوم؛ إذ خالفهم حين ابتدأ معلقته بذكر الراح، وأثرها في الشاربين.

(8) انظر حديثنا عنها فيما يأتي من موضوعات، والأصفهاني، بلاد العرب: 4، وياقوت الحموي، معجم البلدان 479:3، 4:4، 57، 129، 410:5، وكحالة، معجم قبائل العرب: 758، وأبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 17.

(9) فهذا أمر أخلّت المظان في الحديث عنه من جملة ما أخلّت في الحديث عن حياته.

(10) ابن مقبل، ديوانه: 6.

(11) وهي امرأته، وكانت تحت أبيه في الجاهلية، فخلف عليها بعد موته، وكانت العرب تَزوج نساء آبائها وهو أشنع ما كانوا يفعلون، ففرق الإسلام بينهما، فما فتىء ابن مقبل يذكرها في شعره. انظر ابن حبيب، المحبر: 325 – 326.

(12) أبو جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 33.

(13) ديوانه: 258 – 259.

(14) ديوان المعاني 161:2، أورد الأبيات السابقة دون البيت الأول والثاني.

(15) سمط اللآلي: 337.

(16) انظر ابن مقبل، ديوانه: 4، 10، 194.

(17) هي: حياة الجاهلية وحبه لدهماء وشبابه.

(18) المصدر السابق: 23، وانظر ص: 69 – 71، 143 – 144.

(19) المصدر السابق: 283.

(20) المتمثلة في الثالوث الذي أشرنا إليه، وهي الشباب والحب والحياة الجاهلية.

(21) أنس الوجود، ثناء، رمز الماء في الأدب الجاهلي: 11 – 34، وهي أساطير مصر القديمة، وأساطير سومر وبابل وآشور والهند وغيرها من حضارات العالم القديم، وانظر العقاد، الله: 123، 125.

(22) ابن منظور، لسان العرب:(حيا)، وانظر ابن مقبل، ديوانه: 32، 118، وأنس الوجود، ثناء، رمز الماء في الأدب الجاهلي: 106، والحوفي، أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي: 33، 25.

(23) هذا رأي سنبلقيوس (فيلسوف يوناني)، انظر أنس الوجود، ثناء، رمز الماء في الأدب الجاهلي: 12.

(24) انظر مثلاً البقرة: 164، وهود: 7، والنحل: 65، والأنبياء: 30، والنور: 45، والفرقان: 54، والعنكبوت: 63، والروم: 24، ولقمان: 10، والسجدة: 8، والزمر: 21، والجاثية: 5 وغيرها كثير.

(25) لم يذكر الرواة أو الإخباريون العرب أن ابن مقبل اطلع على القرآن الكريم، ويبدو أن تمثّله بتعاليم الإسلام، ولو في الظاهر، يشير من ناحية إلى أنه اطلع على تعاليم هذا الدين، وقد يكون القرآن أحد المصادر التي نظر فيها إلى هذه التعاليم.

(26) خاصة إذا وردت في الطلل.

(27) الشعر والشعراء: 332 – 333، ومعجم البلدان 82:2 على الترتيب؛ قال ابن قتيبة: " وكان [ابن مقبل] خرج في بعض أسفاره، فمر بمنزل عصرٍ العقَيلي [بثاج]، وقد جهده العطشُ، فاستسقى، فخرج إليه ابنتاه بعس فيه لبن، فرأتاه أعور كبيراً، فأبدتا له بعض الجفوة، وذكرتا هرمه وعوره، فغضب وجاز ولم يشرب، وبلغ أباهما الخبر، فتَبِعه ليرده، فلم يرجع، فقال له: ارجع ولك أعجبهما إليك، فرجع وقال قصيدته هذه، وهي أجود شعره". وانظر ابن مقبل، ديوانه: 69 – 86، وأبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 31، وحداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 2، وعامراً، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 53 – 54.

(28) ديوانه: 69، 70، وانظر الأبيات من (1 – 10)، ص: 69 – 71، وعامراً، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 51.

(29) لا أعني بذلك علامات الكِبر من الشيب وتقوس الظهر، ولعل قول ابن قتيبة التالي يوضح المقصود.

(30) المعاني الكبير: 1218.

(31) انظر الحاشية رقم (28).

(32) اللتين هزئتا بابن مقبل حين وقف عليهما واستسقاهما، وذكرتا هرمه وعوره.

(33) اختلف في روايته وفي تفسيره؛ فقد رواه البكري (معجم ما استعجم: 735): "سرع"، وهو قاع قِبل اليمن وراء بِيشة، وقال ياقوت (معجم البلدان 238:3 – 239): سرع من ناحية البحرين، ورواه ياقوت (المصدر السابق 233:3): "سرج"، وهو ماء لبني العجلان في واد، وقال: "وأنا شاك في الجيم"، ورواه أيضاً (المصدر السابق 225:1 – 226): "أُسن"، وهو واد في بلاد بني العجلان، وقيل: من أرض بني عامر المتصلة باليمن، وقال ابن منظور (لسان العرب: أسن): أُسن، ماء لبني تميم، ورواه ابن منظور أيضاً (المصدر السابق: أنس): "أُنُس"، وهو اسم ماء لبني العجلان.

(34) ديوانه: 71.

(35) المصدر السابق: 74.

(36) المصدر السابق: 73 – 74.

(37) هو ماء لبني القَزَع من خَثْعم، من مياه بِيشة، وقال الأصمعي: ثاج بناحية اليمامة، وقال غيره: قرية بالبحرين (البكري، معجم ما استعجم: 333، وانظر ياقوت الحموي، معجم البلدان 82:2)، ورواه ياقوت "تَأج" بالهمز، وقال: " قال الغوري يهمز ولا يهمز: عين من البحرين على ليالٍ".

(38) السقْي: معروف، وهو مصدر سقَيتُ سقْياً. ابن منظور، لسان العرب:(سقا).

(39) ديوانه: 72، وقد تزوج ابن مقبل سلمى في كِبره وبعد إسلامه، كما يفهم من هذه القصيدة، وانظر أبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 31، وعامراً ، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 54.

(40) وهي غير الحركة التي نلمسها في جريان المياه.

(41) ديوانه: 211 – 212، والبيت (25) هو البيت الثالث من هذه الأبيات.

(42) هو الأروي، وهو تيس الجبل.

(43) المصدر السابق: 212 – 213.

(44) رشُوف: من رشف أي شرب. والفراش: جمع فراشة، وهي منقع الماء في الصخرة. وبِساءٍ: أي في جبل ساءٍ، وهو العالي. وركُن: أي استقر ورسا وكانت له أركان.

(45) المصدر السابق: 208، 210.

(46) داثر: أي حوض داثر، وهو الخَرب الذي قد تهدم. والإزاء: مصب الماء في الحوض. والأجن: الماء المتغير الطعم واللون.

(47) المصدر السابق: 213- 214.

(48) يقصد بالمحيط الخارجي القريب من الشاعر: الجانب المادي المتعلق بحاسة البصر.

(49) المصدر السابق: 178.

(50) المصدر السابق: 178.

(51) الركاء: يروى بكسر الراء وفتحها، قيل فيه: هو واد بسرة نجد، وقيل: هو واد في ديار بني العجلان، وقد أكثر ابن مقبل من ذكره. انظر البكري، معجم ما استعجم: 668، وياقوت الحموي، معجم البلدان 71:3.

(52) ديوانه: 177.

(53) الجِنّان: جمع جِن، شبه الفرسان بالجِن. والدحول: ماء [بنجد] لبني العجلان. البكري، معجم ما استعجم: 546، وانظر ياقوت الحموي، معجم البلدان 507:2، ورواه ياقوت في موضع آخر(508:2): " الدخُول "، وقال: " قال أبو زياد: ومن مياه بني العجلان الدخُول".

(54) ديوانه: 179.

(55) الماء الضحل: هو القليل القريب القعر.

(56) المصدر السابق: 129، 130.

(57) بنو الخَليع: قد يكونون الخُلعاء، وهم من قبائل بني عقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، والخَليع: رجل من بني عامر كان له خَطَر فيهم، وقيل: هو رجل رئيس من بني عامر، وربما كان بنو الخليع رهطه. انظر ابن دريد، الاشتقاق: 299، وابن دريد، جمهرة اللغة: 613، والقالي، الأمالي 248:1، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط:(خلع).

(58) ديوانه: 131 – 132، انظر الأبيات من (27 – 33).

(59) المصدر السابق: 131، يتحدث عن المطي في سياق تشبيه ناقته بحمار الوحش في وثاقة الخَلْق.

(60) انظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 332، وابن قتيبة، المعارف: 587، وابن دريد، جمهرة اللغة: 775، والمعري، رسالة الغفران: 237، وياقوت الحموي، معجم البلدان 82:2.

(61) يقال: عضلَ بي الأمر: اشتد وغَلُظَ واستغلقَ، وأمر معضِلٌ: لا يهتَدى لوجهه، والمعضِلاتُ: الشدائد. ابن منظور، لسان العرب: (عضل).

(62) يضاف إلى ما ذُكِر: بعده عن الحياة الجاهلية.

(63) زيادة من النص نفسه في موضع سابق لهذا الموضع.

(64) ابن حبيب، المحبر: 325 – 326، وانظر ابن مقبل، ديوانه: 4، وعامراً ، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 53، والعتوم، قضايا الشعر الجاهلي: 349.

(65) عامر، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 53.

(66) ديوانه: 194.

(67) شيخوخته وبعده عن دهماء.

(68) قال في قصيدة أخرى في هذا المعنى (المصدر السابق: 23):

رقّتْ وقد شَحطَ الفُؤاد عن الصبا
وأتَى المشِيب فَحالَ دون شَبابِي

(69) المصدر السابق: 109 – 110.

(70) الركاء: مضى تفسيره.

(71) المنهل: المشْرب، والماء تشرب منه السابلة في الطريق.

(72) الأجباب: جمع جب، وهي البئر الكثيرة الماء. وأعطانه: أي أعطان المنهل، وهي مبارك الإبل حول المنهل، واحدها عطَن.

(73) أبو جارور، تميم بن أبي بن مقبل، حياته وشعره: 62.

(74) النساء، الآية: 21. مقتاً: سبباً للمقت وهو أشد البغض. وساء: بئس ويطلق على الذي يتزوج امرأة أبيه إذا طلّقها أو مات عليها.

(75) ديوانه: 194، وانظر ابن حبيب، المحبر: 326 باختلاف يسير في الرواية، وتعليق أبي جارور على هذا البيت في: تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 27 – 28.

(76) ديوانه: 114 – 115، وانظر حداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 1.

(77) الركي: جمع الركِية، وهي البئر. والمعور: من عور الركية، إذا طمها ودفنها وسد عيونها التي ينبع منها الماء.

(78) انظر تاريخ الأدب العربي: 307. ونص بلاشير الذي أشار إليه الباحث قوله: " ويظهر هنا وهناك في شعره أثر القرآن الكريم ".

(79) ديوانه: 71.

(80) أبو جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 34، وانظر حداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 1.

(81) انظر بالإضافة إلى ما سيأتي ابن حجر، الإصابة 311:1، والبغدادي، خزانة الأدب 231:1.

(82) طبقات فحول الشعراء: 150.

(83) العمدة 305:1.

(84) انظر أبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 34 – 35، 62، والجبوري، الشعر الجاهلي: 45.

(85) انظر الحاشية رقم (149).

(86) حداد، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 8.

(87) الطبري، تاريخه 261:3، وابن الأثير، الكامل في التاريخ 210:2.

(88) انظر عامراً، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 39.

(89) بل إنه تجاوز هذا الحد إلى إظهار سخطه وزرايته على المرحلة الإسلامية من عمره، بعد أن فجعه بمن أشرنا إليهم. انظر ديوانه: 96(الأبيات 6 – 9)، وأبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 63، 64.

(90) ديوانه: 112 – 115، الأبيات من(33 – 36، 46 – 49)، وانظر ص: 9 - 10.

(91) المصدر السابق: 10.

(92) ملْحوب: هو وادي متالع في قول الأصمعي، وقيل: هو ماء لبني أسد[بن خُزيمة] على رأس تلّ. البكري، معجم ما استعجم: 1254 – 1255، وانظر ياقوت الحموي، معجم البلدان 221:5.

(93) ديوانه: 107 – 108.

(94) معجم ما استعجم: 732.

(95) ويقال لباهلة، انظر المصدر السابق: 792، وياقوت الحموي، معجم البلدان 381:3.

(96) أي القوم المتجاورون في المنزل.

(97) ديوانه: 141.

(98) المصدر السابق: 141.

(99) أي الشديد.

(100) المصدر السابق: 142.

(101) المصدر السابق: 143 – 144.

(102) المصدر السابق: 144.

(103) انظر النماذج السابقة والتالية، والإحالات التي أحلنا إليها، والتي ربط الشاعر فيها المياه بالطلل.

(104) وهي النماذج التي ذُكرت في الأزمة السابقة.

(105) المصدر السابق: 116.

(106) المصدر السابق: 117.

(107) المصدر السابق: 117 – 118.

(108) العلاجيم: جمع علْجم، وهو الغدير الكثير الماء. ومغمور العلاجيم: المدفون الذي نضب ماؤه وغمره التراب، أو هو بمعنى الممطور.

(109) الغُبرة: اغْبِرار اللون يغْبر للهم ونحوه.

(110) تِبراك: ماء لبني العنْبر، وقيل: موضع في ديار بني فَقْعس. انظر البكري، معجم ما استعجم: 301، وياقوت الحموي، معجم البلدان 13:2، 14.

(111) طِلْحام: بالحاء والخاء، أرض، وقيل: اسم واد، وقيل: موضع. انظر البكري، معجم ما استعجم: 893، وياقوت الحموي، معجم البلدان 14:2.

(112) ديوانه: 239.

(113) انظر مثالاً على ذلك فيما سبق.

(114) المصدر السابق: 240.

(115) المصدر السابق: 241.

(116) لُكَيز وأوزة: موضعان في ديار بني عقَيل من وراء الفَلَج. (البكري، معجم ما استعجم: 1162). ومفضى السيل: حيث يفضي السيل في بطون الأرض في انحداره من الأعالي. والغذيان: السيلان، من غذا يغذو إذا سال أو أسرع.

(117) الوحِيدان: ماءان في بلاد قَيس معروفان، وقال ياقوت: " قال الأزدي: وكان خالد يقول الوحيدان بالحاء وبعضهم بالجيم الوجيدان وصدوان، بالصاد ". (انظر معجم البلدان 418:5). والنقرة: موضع في الصخر يجتمع فيه الماء.

(118) ديوانه: 242 من القصيدة نفسها.

(119) وربما غيره من الكائنات الحية.

(120) الإوانة: بالكسر، من مياه بني عقَيل بنجد. ياقوت الحموي، معجم البلدان 327:1.

(121) ديوانه: 264 – 265.

(122) المصدر السابق: 265.

(123) المصدر السابق: 265.

(124) الشهلاء: من مياه بني عمرو بن كلاب. ياقوت الحموي، معجم البلدان 428:3.

(125) ديوانه: 266.

(126) المصدر السابق: 266.

(127) المصدر السابق: 268 – 270.

(128) المصدر السابق: 271. إن هذه النهاية التي انتهى إليها الذئب من الظفر والمرح، والتي ساقته إلى منهل الماء ليشرب منه مع ما تدل عليه هذه النهاية نجدها في أحد النماذج على نحو يقرب منها؛ إذ أتى الشاعر على ذِكْر الماء فيه ليدل على معنى الحيوية والنشاط، وذلك في سياق الوصف وتشبيه سرعة الناقة بسرعة حمار الوحش، فقد جعل هذا الحمار في غاية العطش أيام القيظ، ليصل به إلى

نوع من الصراع مع نفسه، وهو يترقب انصراف الوراد عن الحوض ليشرب منه، فلما نزل الليل خالفهم وشرب من الحوض، لأن مياه الغدران قد نضبت، شرباً أعاد له – على قلّته – حيويته ونشاطه، فأخذ يقطع الأراضي ويجوز المرتفعات. انظر المصدر السابق: 167 – 169 (الأبيات 16، 20 – 24).

(129) الماء العِد: ماء العيون والآبار.

(130) المصدر السابق: 133.

(131) القبائض: مصانع لبني قَبيصة، وهي ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها. انظرالبكري، معجم ما استعجم: 1047، وياقوت الحموي، معجم البلدان 344:4، وابن منظور، لسان العرب:(صنع).

(132) الكَرع: ماء السماء.

(133) ديوانه: 134.

(134) الذنابين: رواه البكري (معجم ما استعجم: 616) "الذنانِين" بفتح الذال، ونون بعد الألف، وهو ماء من مياه ماوِية باليمن، وقال: " وقد رأيت من ضبطه بكسر أوله". وماوِية: ماء ببطن فَلْج على ست مراحل من البصرة، مشهور بعذوبة مائه، وقال البكري: "ويقال أيضاً: ماويهِ". (المصدر السابق: 1178 – 1179، وانظر ابن منظور، لسان العرب: موا)، ورواه البكري أيضاً (المصدر السابق: 895 – 896) على الرواية الثانية "مأويه"، وفسره أنه: ماء لبني العنبر ببطن فَلْج. وفسر ياقوت (معجم البلدان 57:5) " ماوِية " بهذا التفسير الأخير، ورواه في (54:5) في هذا البيت " ماوانة". والنزع: جمع نَزوع ونَزيع، وهي البئر القريبة القعر تنزع دلاؤها بالأيدي لقربها، ويبدو أنه يوجد أكثر من ماء في الذنابين، لأنه قال النزع بالجمع.

(135) ديوانه: 135.

(136) الملاويح: جمع المِلْواح، وهي المرأة السريعة العطش، وذلك من النعمة.

(137) كما يفهم من سبب رحيلهم عن الديار.

(138) المصدر السابق: 137، والكلام كناية عن زمن الشدة والضيق حيث يقلّ الطعام ويعز القوت.

(139) المحاضر: جمع محضر، وهو رجوع العرب إلى أعداد المياه التي يكون لهم قرار عندها، وذلك في شهور القيظ.

(140) المصدر السابق: 133.

(141) المصدر السابق: 133.

(142) المصدر السابق: 134.

(143) انظر مثل هذه النتيجة في المصدر السابق: 172 – 173، 174 – 175 (الأبيات 15 – 19، 31 – 33) عندما قابل بين الصورة التي رسمها للمطي وهن يتنازعن دلاء الماء من شدة العطش، وبين الصورة التي رسمها لعطائه وكرمه في زمن الشدة والضيق.

(144) المصدر السابق: 138 – 139. وآل شهاب: قد يكونون بني شهاب من بني عِدِي من قبائل الرباب. ابن دريد، الاشتقاق: 187.

(145) المصدر السابق: 123 – 124 (الأبيات 1 – 10).

(146) انظر تعليق أبي جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 28، وحسنين، في الشعر الجاهلي: 36 – 37 عن موقف الشاعر من مقدرات قبيلته، وما تتطلبه منه كأداة من أدواتها في الدفاع عن وجودها الحيوي، وعن واجب الفرد تجاه قبيلته، وحقوق قبيلته عليه، ومن ثَم إشارته إلى الفخر الذي يفخره الشاعر إنما يستمده من محيطه القبلي.

(147) ديوانه: 124 – 125 (الأبيات 11 – 13).

(148) في الفخر بالنفس وبالقوم، ووصف القداح، ولعب الميسر، والوصف، والحديث عن فتوة الشباب بحيث تتضمن القصيدة الواحدة موضوعات متعددة، وليس موضوعاً واحداً.

(149) عده ابن سلاّم الجمحي في الطبقة الخامسة من فحول الجاهلية بعد خِداش بن زهير والأسود بن يعفُر والمخبل السعدي. انظر طبقات فحول الشعراء: 143.

(150) انظر رأي العلماء في شعره، المصدر السابق: 150، وابن قتيبة، الشعر والشعراء: 333 – 334، وثعلب، مجالس ثعلب: 413، والعسكري، المصون: 169، والمرزباني، الموشح: 100، وابن رشيق، العمدة 97:1، والسيوطي، المزهر 482:2، وحداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 5 – 9، 11 – 13.

(151) انظر ديوانه: 31 – 33 (الأبيات 7 – 27)، وأبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 66 – 67، وقد اتبع في تحليل الأبيات التحليل التقليدي المعروف في الرثاء أنه مدح للميت.

(152) عسفان: قرية جامعة بين مكة والمدينة، كثيرة الآبار والحياض، وهي لبني المصطَلِق من خُزاعة، وقيل: عسفان منْهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة. انظر البكري، معجم ما استعجم: 942 – 943، وياقوت الحموي، معجم البلدان 137:4.

(153) ديوانه: 30، وانظر تعليقنا في الحاشية التالية.

(154) انظر بالإضافة إلى النموذج التالي المصدر السابق: 99، 102 (الأبيات 1 – 4، 18) إذ ربط الشاعر المياه بالطلل لشوقه إلى بعث الحياة فيه من جديد، بعد أن تركه أهله بسبب الحروب التي قامت فيه، وقد مهد الشاعر للحديث عن الغارة منذ البيت (12)، انظر الأبيات التي قالها فيها من البيت (12 – 18)، ص: 101 – 102، وانظر نموذجاً آخر ص: 147 – 148، 150 – 153(الأبيات 1 – 2، 5 – 6، 20 – 31، 34 – 35، 38 – 40، 46) بتأويل مشابه للتأويل السابق، إذ كان بعض فخر الشاعر بقومه في مجال الحرب.

(155) المصدر السابق: 59.

(156) أسود: قد يكون اسم جبل كما يفْهم من القصيدة، وربما أراد الشاعر به الجبل المعروف بـ " أسود العين"، وهو من جبال ضرية. البكري، معجم ما استعجم: 151، وانظر الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (سود).

(157) انظر البكري، معجم ما استعجم: 238. فقد ذكره على هذا النحو دون تفاصيل أخرى.

(158) ديوانه: 58 – 59.

(159) المصدر السابق: 58.

(160) الحوالب: حوالب الوادي، وهي روافده التي تصب فيه. وعرد: مال عنها.

(161) المصدر السابق: 59.

(162) الوله: ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن أو الخوف، وقيل: ذهاب العقل لفقدان الحبيب.

(163) انظر قصيدته التي يخاطب فيها الحرة في المصدر السابق: 69 – 70 (الأبيات 1 – 10)، وص: 109 – 110 (الأبيات 14 – 16) وغيرها مما مضى في البحث.

(164) وقد صرح بذلك هو انظر ديوانه: 74 (البيتان 27 – 28)؛ إذ كان يتمنّى لو أن السلوة والنسيان تشفيانه مما يعتري قلبه من الذكرى، وأبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 65.

المصادر والمراجع

ابن الأثير الجزري، عز الدين، أبو الحسن، علي بن محمد (ت 630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ-1995م.

ابن حبيب، أبو جعفر، محمد بن حبيب (ت 245هـ)، المحبر، تصحيح إيلزه ليختن شتيتر (د.ت.)، المكتب التجاري، بيروت.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل، أحمد بن علي (ت 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق طه محمد الزيني، 1388هـ-1397هـ-1968م-1977م، ط1، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد (ت 456هـ)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1977م، ط4، دار المعارف، القاهرة.

ابن دريد، أبو بكر، محمد بن الحسن (ت 321هـ)؛ الاشتقاق، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، (د.ت.)، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة؛ جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، 1987م – 1988م، ط1، دار العلم للملايين، بيروت.

ابن رشيق، أبو علي، الحسن بن رشيق (ت456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، 1401هـ-1981م، ط5، دار الجيل، بيروت.

ابن سلاّم الجمحي، محمد بن سلاّم (ت231هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، 1980م، مطبعة المدني، القاهرة.

ابن العِبري، أبو الفرج، غريغوريوس بن اهرون الملطي (ت 685هـ)، تاريخ مختصر الدول، تصحيح الأب أنطون صالحاني اليسوعي، 1403هـ-1983م، دار الرائد اللبناني، بيروت.

ابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)؛ الشعر والشعراء، تحقيق عمر الطباع، 1418هـ-1997م، ط1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت؛ المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، 1388هـ-1969م، ط2، دار المعارف، القاهرة؛ المعاني الكبير في أبيات المعاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ-1984م.

ابن الكلبي، أبو المنذر، هشام بن محمد بن السائب (ت 204هـ)، جمهرة النسب، تحقيق محمود فردوس العظم، (د.ت)، دار اليقظة، دمشق.

ابن مزاحم، أبو الفضل، نصر بن مزاحم المنقري (ت 212هـ)، وقعة صفّين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، 1401هـ-1981م، ط3، مكتبة الخانجي، والمؤسسة العربية الحديثة، القاهرة.

ابن مقْبِل، تميم بن أُبي، ديوانه، تحقيق عزة حسن، 1416هـ-1995م، دار الشرق العربي، بيروت.

ابن منظور، أبو الفضل، محمد بن مكرم (ت 711هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، (د.ت).

ابن النديم، أبو الفرج، محمد بن إسحاق (ت 385هـ)، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، ، 1391هـ-1971م، طهران.

أبو جارور، سهام فالح، 1409هـ-1988م، تميم بن أُبي بن مقْبِل: حياته وشعره (رسالة ماجستير)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، دائرة اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك.

الأخطل، شعره، تحقيق فخر الدين قباوة، 1416هـ- 1996م، ط4، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت.

الأصفهاني، أبو علي، الحسن بن عبد الله (ت 210هـ)، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، 1388هـ-1968م، ط1، دار اليمامة، الرياض.

أنس الوجود، ثناء، 1977م، رمز الماء في الأدب الجاهلي، مكتبة الشباب، القاهرة.

البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت 1093هـ)، خزانة الأدب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، 1979م – 1986م، ط1- 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ومكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي، الرياض.

البكري، أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ)؛ سمط اللآلي، تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي، 1404هـ-1984م، ط2، دار الحديث، بيروت؛ معجم ما استعجم من

أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقّا، 1364هـ-1945م، عالم الكتب، بيروت.

بلاشير، ريجيس، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، 1404هـ-1984م، ط2، دار الفكر، دمشق.

ثعلب، أبو العباس، أحمد بن يحيى (ت 291هـ)، مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1400هـ-1980م، ط4، دار المعارف، القاهرة.

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (ت 255هـ)؛ البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، 1367هـ-1948م، ط4، محمد فاتح الداية (المجمع العلمي العربي الإسلامي)، بيروت؛ الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، 1388هـ-1969م، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ط3، بيروت.

الجبوري، يحيى، 1418هـ-1997م، الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت.

حداد، خلدون مرعي إبراهيم، 1991م، ديوان ابن مقبل: دراسة لغوية (رسالة ماجستير)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دائرة اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك.

حسنين، سيد حنفي، 1971م، الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية: دراسة نصية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة.

الحصري، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي (ت 453هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، 1972م، ط4، دار الجيل، بيروت، ومكتبة المحتسب، عمان.

الحوفي، أحمد محمد، 1377هـ-1958م، أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.

السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن الكمال (ت 911هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، (د.ت.)، دار الفكر، بيروت.

صاعد الأندلسي، أبوالقاسم، صاعد بن أحمد (ت 462هـ)، طبقات الأمم، تحقيق حسين مؤنس، 1993م، دار المعارف، القاهرة.

الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت 310هـ)، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1387هـ-1967م، ط2، (د. ن.)، بيروت.

عامر، مسعود، 1407هـ-1987م، تميم بن أُبي بن مقبل : حياته وشعره (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دمشق.

عبد، عبد الأمير نعمة، 1405هـ-1985م، ابن مقبل حياته وشعره (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة البصرة.

العسكري، أبو أحمد، الحسن بن عبد الله بن سعيد (ت 382هـ)، المصون في الأدب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1402هـ-1982م، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي، الرياض.

العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت 395هـ)، ديوان المعاني، تصحيح المستشرق كرنكو، 1352هـ، مكتبة القدسي، القاهرة.

العقاد، عباس محمود، 1960م، الله، ط3، دار المعارف، القاهرة.

الفيروزابادي، مجد الدين، أبو طاهر، محمد بن يعقوب (ت 817هـ)، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، 1407هـ-1987م، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت.

القالي، أبو علي، إسماعيل بن القاسم (ت 356هـ)، 1400هـ-1980م، الآمالي، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

كحالة، عمر رضا، 1402هـ-1982م، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت.

المرزباني، أبو عبيد الله، محمد بن عمران بن موسى (ت 384هـ)، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، 1415هـ-1995م، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

المعري، أبو العلاء، أحمد بن عبد الله بن سليمان (ت 449هـ)، رسالة الغفران، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن، 1397هـ-1977م، ط2، دار المعارف، القاهرة.

ياقوت الحموي، شهاب الدين، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ)؛ معجم الأدباء، دار المأمون، القاهرة، ودار إحياء التراث العربي، 1357هـ-1938م بيروت؛ معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، 1990م، دار الكتب العلمية، بيروت.

Water in the Poetry of Tamim Ibn Ubay Ibn Muqbil
An Interpretive Reading

Leila Al-Umari*

ABSTRACT

The study deals with the role of water in the three crises of Ubay Ibn Muqbil, namely: his distance from Jahili (pre-Islamic) life, and his separation from Dahma` his beloved wife, and his old age. He uses the theme of water to alleviate his grief, and it helps him to nostalgically resort to the past through his memories- and after his conversion to Islam. The researcher pursues an interpretative method which interprets water in the poetry verses through its indication of life, vitality and energy- an interpretation that helped the researcher to apprehend the purpose intended by the poet from including the element of water in his poems. He connected this element to the mentioned indication in an implicit manner.

The researcher adopts in his study of this role- and upon it she based the sections of her study- the view of the poet in dealing with his crises- in a manner that led him in some of his poems to simple solutions which included the previous indications, and in other respects led him to philosophical solutions which reveal the awareness of the poet of the extent of his issues and problems, and the manner in which he dealt with them, alongside his understanding of life in a way that encompasses both himself and others.

The poet utilizes in his discussion of water rhetorical tools such as metonymy and comparison, and thematic elements in the verses- which help him to attain his desired aim- insofar as referring to water in his poems to convey his crises, alongside his striving to solve them in a moral way.

Keywords: Water, Ibn Muqbil, Tamim, Dahma`, life, vitality, energy, Jahili (pre-Islamic).

---

* Department of Arabic Language, Faculty of Sciences and Arts, Hashemite University, Zarqa, Jordan. Received on 27/4/2004 and Accepted for Publication on 21/7/2004.

---

(1) انظر مثلاً ابن الكلبي، جمهرة النسب 28:2 – 30، 50 – 51، 212:3، وابن سلاّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء: 150، وابن حبيب، المحبر: 326، والجاحظ، البيان والتبيين 239:1 – 240، 37:4، وابن قتيبة، الشعر والشعراء: 332 – 334، وابن قتيبة، المعارف: 587، وثعلب، مجالس ثعلب: 363 – 364، 413، وابن دريد، الاشتقاق: 12، 25، 54، 70، 297، 299، وابن دريد، جمهرة اللغة: 775، والقالي، الأمالي 15:1، 18، 94، 229، 233، 257، 41:2، 42، 101، 152، 164، 213، والمرزباني، الموشح: 100، وابن النديم، الفهرست: 86، 178، والعسكري، ديوان المعاني 161:2، والمعري، رسالة الغفران: 237، والحصري، زهر الآداب: 54 – 55، وابن حزم، جمهرة أنساب العرب: 288، 480، 483، وابن رشيق، العمدة 52:1، 97، 305، 308:2، والبكري، سمط اللآلي: 66- 68، 152، 205، 207، 293 – 294، 337، 668، 687، 732 – 733، 775، 832 – 833، والبكري، معجم ما استعجم: 131، وياقوت الحموي، معجم الأدباء 55:19، وابن حجر، الإصابة 311:1 – 312، والبغدادي، خزانة الأدب 231:2 – 233، وكحالة، معجم قبائل العرب 758:2.

(2) والتي جاءت بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وما كان من نزاع مرير بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في صفّين. انظر ابن مزاحم، وقعة صفين: 524 – 527.

(3) إلا ما كان من رده على النجاشي الحارثي في قصيدة ينقض فيها قوله، وكان النجاشي ذكر معاوية بن أبي سفيان، وفراره من الحرب في صفّين، وهجا قيس عيلان وعامراً قوم ابن مقبل وسائر القبائل التي كان ميلها مع معاوية على علي، وفخر بقومه وباليمانية عامة. (انظر ابن مقبل، ديوانه: 237 – 243، وابن مزاحم، وقعة صفّين: 526 – 527). وكان ابن مقبل رثى – من قبل – عثمان بن عفان رضي الله عنه ونادى بالثأر له، فقد كان عثماني الهوى يميل ميل الأمويين مع قومه بني عامر. (انظر ابن مقبل، ديوانه: 30 – 36).

وما كان من رده على الأخطل التغلبي في قصيدة ينقض فيها هجاءه للقيسية إثر هزيمتهم في وقعة مرج راهط، وكان الأخطل أقذع في هجائه لهم، وهزأ بقيس عامة، ورهط ابن مقبل بني العجلان خاصة، فتصدى ابن مقبل للأخطل وقومه التغلبيين. انظر المصدر السابق: 91 – 94، وكذلك ص: 222 – 224 يهجو الأخطل، ورائية الأخطل، شعره: 135 – 143.

(4) انظر ما ذكره صاعد الأندلسي في طبقات الأمم: 57 – 58، وابن العِبري في تاريخ مختصر الدول: 158 – 159 عن تنقّل أهل الوبر – وهم قطان الصحاري وعمار الفلوات – في الأماكن، وانتجاعهم النجع أيام الربيع ثم عودتهم إلى محاضرهم على أعداد المياه زمان الصيف والقيظ. وانظر كذلك ابن منظور، لسان العرب:(بدا)، (حضر)، (نجع)، والجبوري، الشعر الجاهلي: 57، 76 – 77، 78 - 79.

(5) ابن مقبل، ديوانه: 6، وانظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 332، وياقوت الحموي، معجم البلدان، 82:2، وأبا جارور، تميم بن أبي ابن مقبل حياته وشعره: 31، وحداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 2.

(6) فهذا أمر تعرض له غيري من قبل. انظر أبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 1 – 36، وحداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 1 – 2، وعامراً، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 48 – 93، وعبد، ابن مقبل حياته وشعره: 6 – 7، 17، 22 – 24، 32 – 68.

(7) باستثناء عمرو بن كلثوم، إذ خالفهم حين ابتدأ معلقته بذكر الراح، وأثرها في الشاربين.

(8) انظر حديثنا عنها فيما يأتي من موضوعات، والأصفهاني، بلاد العرب: 4، وياقوت الحموي، معجم البلدان 479:3، 4:4، 57، 129، 410:5، وكحالة، معجم قبائل العرب: 758، وأبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 17.

(9) فهذا أمر أخلّت المظان في الحديث عنه من جملة ما أخلّت في الحديث عن حياته.

(10) ابن مقبل، ديوانه: 6.

(11) وهي امرأته، وكانت تحت أبيه في الجاهلية، فخاف عليها بعد موته، وكانت العرب تَزوج نساء آبائها وهو أشنع ما كانوا يفعلون، ففرق الإسلام بينهما، فما فتىء ابن مقبل يذكرها في شعره. انظر ابن حبيب، المحبر: 325 – 326.

(12) أبو جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 33.

(13) ديوانه: 258 – 259.

(14) ديوان المعاني 161:2، أورد الأبيات السابقة دون البيت الأول والثاني.

(15) سمط اللآلي: 337.

(16) انظر ابن مقبل، ديوانه: 4، 10، 194.

(17) هي: حياة الجاهلية وحبه لدهماء وشبابه.

(18) المصدر السابق: 23، وانظر ص: 69 – 71، 143 – 144.

(19) المصدر السابق: 283.

(20) االمتمثلة في الثالوث الذي أشرنا إليه، وهي الشباب والحب والحياة الجاهلية.

---

(21) أنس الوجود، ثناء، رمز الماء في الأدب الجاهلي: 11 – 34، وهي أساطير مصر القديمة، وأساطير سومر وبابل وآشور والهند وغيرها من حضارات العالم القديم، وانظر العقاد، الله: 123، 125.

(22) ابن منظور، لسان العرب:(حيا)، وانظر ابن مقبل، ديوانه: 32، 118، وأنس الوجود، ثناء، رمز الماء في الأدب الجاهلي: 106، والحوفي، أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي: 33، 25.

(23) هذا رأي سنبلقيوس فيلسوف يوناني، انظر أنس الوجود، ثناء، رمز الماء في الأدب الجاهلي: 12.

(24) انظر مثلاً البقرة: 164، وهود: 7، والنحل: 65، والأنبياء: 30، والنور: 45، والفرقان: 54، والعنكبوت: 63، والروم: 24، ولقمان: 10، والسجدة: 8، والزمر: 21، والجاثية: 5 وغيرها كثير.

(25) لم يذكر الرواة أو الإخباريون العرب أن ابن مقبل اطلع على القرآن الكريم، ويبدو أن تمثّله بتعاليم الإسلام، ولو في الظاهر، يشير من ناحية إلى أنه اطلع على تعاليم هذا الدين، وقد يكون القرآن أحد المصادر التي نظر فيها إلى هذه التعاليم.

(26) خاصة إذا وردت في الطلل.

(27) الشعر والشعراء: 332 – 333، ومعجم البلدان 82:2 على الترتيب؛ قال ابن قتيبة: " وكان [ابن مقبل] خرج في بعض أسفاره، فمر بمنزل عصرٍ العقَيلي [بثاج]، وقد جهده العطشُ، فاستسقى، فخرج إليه ابنتاه بعس فيه لبن، فرأتاه أعور كبيراً، فأبدتا له بعض الجفوة، وذكرتا هرمه وعوره، فغضب وجاز ولم يشرب، وبلغ أباهما الخبر، فتَبِعه ليرده، فلم يرجع، فقال له: ارجع ولك أعجبهما إليك، فرجع وقال قصيدته هذه، وهي أجود شعره ". وانظر ابن مقبل، ديوانه: 69 – 86، وأبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 31، وحداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 2، وعامراً، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 53 – 54.

(28) ديوانه: 69، 70، وانظر الأبيات من (1 – 10)، ص: 69 – 71، وعامراً، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 51.

(29) لا أعني بذلك علامات الكِبر من الشيب وتقوس الظهر، ولعل قول ابن قتيبة التالي يوضح المقصود.

(30) المعاني الكبير: 1218.

(31) انظر الحاشية رقم (28).

(32) اللتين هزئتا بابن مقبل حين وقف عليهما واستسقاهما، وذكرتا هرمه وعوره.

(33) اختلف في روايته وفي تفسيره؛ فقد رواه البكري (معجم ما استعجم: 735): " سرع "، وهو قاع قِبل اليمن وراء بِيشة، وقال ياقوت (معجم البلدان 238:3 – 239): سرع من ناحية البحرين، ورواه ياقوت (المصدر السابق 233:3): " سرج "، وهو ماء لبني العجلان في واد، وقال: " وأنا شاك في الجيم "، ورواه أيضاً (المصدر السابق 225:1 – 226): " ُأسن "، وهو واد في بلاد بني العجلان، وقيل: من أرض بني عامر المتصلة باليمن، وقال ابن منظور (لسان العرب: أسن): ُأسن، ماء لبني تميم، ورواه ابن منظور أيضاً (المصدر السابق: أنس): " ُأنُس "، وهو اسم ماء لبني العجلان.

(34) ديوانه: 71.

(35) المصدر السابق: 74.

(36) المصدر السابق: 73 – 74.

(37) هو ماء لبني القَزع من خَثْعم، من مياه بِيشة، وقال الأصمعي: ثاج بناحية اليمامة، وقال غيره: قرية بالبحرين (البكري، معجم ما استعجم: 333، وانظر ياقوت الحموي، معجم البلدان 82:2)، ورواه ياقوت " ثأج " بالهمز، وقال: " قال الغوري يهمز ولا يهمز: عين من البحرين على ليالٍ".

(38) السقْي: معروف، وهو مصدر سقَيتُ سقْياً. ابن منظور، لسان العرب:(سقا).

(39) ديوانه: 72، وقد تزوج ابن مقبل سلمى في كِبره وبعد إسلامه، كما يفهم من هذه القصيدة، وانظر أبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 31، وعامراً ، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 54.

(40) وهي غير الحركة التي نلمسها في جريان المياه.

(41) ديوانه: 211 – 212، والبيت (25) هو البيت الثالث من هذه الأبيات.

(42) هو الأُروي، وهو تيس الجبل.

(43) المصدر السابق: 212 – 213.

(44) رشُوف: من رشف أي شرب. والفراش: جمع فراشة، وهي منقع الماء في الصخرة. وبِساءٍ: أي في جبل ساءٍ، وهو العالي. وركُن: أي استقر ورسا وكانت له أركان.

(45) المصدر السابق: 208، 210.

(46) داثر: أي حوض داثر، وهو الخَرِب الذي قد تهدم. والإزاء: مصب الماء في الحوض. والأجن: الماء المتغير الطعم واللون.

---

(47) المصدر السابق: 213- 214.

(48) يقصد بالمحيط الخارجي القريب من الشاعر: الجانب المادي المتعلق بحاسة البصر.

(49) المصدر السابق: 178.

(50) المصدر السابق: 178.

(51) الركاء: يروى بكسر الراء وفتحها، قيل فيه: هو واد بسرة نجد، وقيل: هو واد في ديار بني العجلان، وقد أكثر ابن مقبل من ذكره. انظر البكري، معجم ما استعجم: 668، وياقوت الحموي، معجم البلدان 71:3.

(52) ديوانه: 177.

(53) الجِنّان: جمع جِن، شبه الفرسان بالجِن. والدحول: ماء [بنجد] لبني العجلان. البكري، معجم ما استعجم: 546، وانظر ياقوت الحموي، معجم البلدان 507:2، ورواه ياقوت في موضع آخر(508:2): " الدخُول "، وقال: " قال أبو زياد: ومن مياه بني العجلان الدخُول".

(54) ديوانه: 179.

(55) الماء الضحل: هو القليل القريب القعر.

(56) المصدر السابق: 129، 130.

(57) بنو الخَليع: قد يكونون الخُلعاء، وهم من قبائل بني عقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، والخَليع: رجل من بني عامر كان له خَطَر فيهم، وقيل: هو رجل رئيس من بني عامر، وربما كان بنو الخليع رهطه. انظر ابن دريد، الاشتقاق: 299، وابن دريد، جمهرة اللغة: 613، والقالي، الأمالي 248:1، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزآبادي، القاموس المحيط:(خلع).

(58) ديوانه: 131 – 132، انظر الأبيات من (27 – 33).

(59) المصدر السابق: 131، يتحدث عن المطي في سياق تشبيه ناقته بحمار الوحش في وثاقة الخَلْق.

(60) انظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 332، وابن قتيبة، المعارف: 587، وابن دريد، جمهرة اللغة: 775، والمعري، رسالة الغفران: 237، وياقوت الحموي، معجم البلدان 82:2.

(61) يقال: عضلَ بي الأمر: اشتد وغَلُظَ واستغلقَ، وأمر معضِلٌ: لا يهتَدى لوجهه، والمعضِلاتُ: الشدائد. ابن منظور، لسان العرب: (عضل).

(62) يضاف إلى ما ذُكِر: بعده عن الحياة الجاهلية.

(63) زيادة من النص نفسه في موضع سابق لهذا الموضع.

(64) ابن حبيب، المحبر: 325 – 326، وانظر ابن مقبل، ديوانه: 4، وعامراً ، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 53، والعتوم، قضايا الشعر الجاهلي: 349.

(65) عامر، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 53.

(66) ديوانه: 194.

(67) شيخوخته وبعده عن دهماء.

(68) قال في قصيدة أخرى في هذا المعنى (المصدر السابق: 23):

طَرَقَتْ وقَد شَحطَ الفُؤاد عن الصبا وأتَى المشِيب فَحالَ دون شَبابِي

(69) المصدر السابق: 109 – 110.

(70) الركاء: مضى تفسيره.

(71) المنهل: المشْرب، والماء تشرب منه السابلة في الطريق.

(72) الأجباب: جمع جب، وهي البئر الكثيرة الماء. وأعطانه: أي أعطان المنهل، وهي مبارك الإبل حول المنهل، واحدها عطَن.

(73) أبو جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 62.

(74) النساء، الآية: 21. مقتاً: سبباً للمقت وهو أشد البغض. وساء: بئس ويطلق على الذي يتزوج امرأة أبيه إذا طلّقها أو مات عليها.

(75) ديوانه: 194، وانظر ابن حبيب، المحبر: 326 باختلاف يسير في الرواية، وتعليق أبي جارور على هذا البيت في: تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 27 – 28.

(76) ديوانه: 114 – 115، وانظر حداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 1.

(77) الركِي: جمع الركِية، وهي البئر. والمعور: من عور الركية، إذا طمها ودفنها وسد عيونها التي ينبع منها الماء.

(78) انظر تاريخ الأدب العربي: 307. ونص بلاشير الذي أشار إليه الباحث قوله: " ويظهر هنا وهناك في شعره أثر القرآن الكريم ".

---

(79) ديوانه: 71.

(80) أبو جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 34، وانظر حداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 1.

(81) انظر بالإضافة إلى ما سيأتي ابن حجر، الإصابة 311:1، والبغدادي، خزانة الأدب 231:1.

(82) طبقات فحول الشعراء: 150.

(83) العمدة 305:1.

(84) انظر أبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 34 – 35، 62، والجبوري، الشعر الجاهلي: 45.

(85) انظر الحاشية رقم (149).

(86) حداد، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 8.

(87) الطبري، تاريخه 261:3، وابن الأثير، الكامل في التاريخ 210:2.

(88) انظر عامراً، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 39.

(89) بل إنه تجاوز هذا الحد إلى إظهار سخطه وزرايته على المرحلة الإسلامية من عمره، بعد أن فجعه بمن أشرنا إليهم. انظر ديوانه: 96(الأبيـات 6 – 9)، وأبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 63، 64.

(90) ديوانه: 112 – 115، الأبيات من(33 – 36، 46 – 49)، وانظر ص: 9 - 10.

(91) المصدر السابق: 10.

(92) ملْحوب: هو وادي متالع في قول الأصمعي، وقيل: هو ماء لبني أسد[بن خُزيمة] على رأس تلّ. البكري، معجم ما استعجم: 1254 – 1255، وانظر ياقوت الحموي، معجم البلدان 221:5.

(93) ديوانه: 107 – 108.

(94) معجم ما استعجم: 732.

(95) ويقال لباهلة، انظر المصدر السابق: 792، وياقوت الحموي، معجم البلدان 381:3.

(96) أي القوم المتجاورون في المنزل.

(97) ديوانه: 141.

(98) المصدر السابق: 141.

(99) أي الشديد.

(100) المصدر السابق: 142.

(101) المصدر السابق: 143 – 144.

(102) المصدر السابق: 144.

(103) انظر النماذج السابقة والتالية، والإحالات التي أحلنا إليها، والتي ربط الشاعر فيها المياه بالطلل.

(104) وهي النماذج التي ذُكرت في الأزمة السابقة.

(105) المصدر السابق: 116.

(106) المصدر السابق: 117.

(107) المصدر السابق: 117 – 118.

(108) العلاجيم: جمع علْجم، وهو الغدير الكثير الماء. ومغمور العلاجيم: المدفون الذي نضب ماؤه وغمره التراب، أو هو بمعنى الممطور.

(109) الغُبرة: اغْبِرار اللون يغْبر للهم ونحوه.

(110) تِبراك: ماء لبني العنْبر، وقيل: موضع في ديار بني فَقْعس. انظر البكري، معجم ما استعجم: 301، وياقوت الحموي، معجم البلدان 13:2، 14.

(111) طِلْحام: بالحاء والخاء، أرض، وقيل: اسم واد، وقيل: موضع. انظر البكري، معجم ما استعجم: 893، وياقوت الحموي، معجم البلدان 14:2.

(112) ديوانه: 239.

(113) انظر مثالاً على ذلك فيما سبق.

(114) المصدر السابق: 240.

(115) المصدر السابق: 241.

(116) لُكيز ولُوزة: موضعان في ديار بني عقَيل من وراء الفَلَج. (البكري، معجم ما استعجم: 1162). ومفضى السيل: حيث يفضي السيل في بطون الأرض في انحداره من الأعالي. والغذيان: السيلان، من غذا يغذو إذا سال أو أسرع.

---

(117) الوجِيدان: ماءان في بلاد قيس معروفان، وقال ياقوت: " قال الأزدي: وكان خالد يقول الوحيدان بالحاء وبعضهم بالجيم الوجيدان وصدوان، بالصاد ". (انظر معجم البلدان 418:5). والنقرة: موضع في الصخر يجتمع فيه الماء.

(118) ديوانه: 242 من القصيدة نفسها.

(119) وربما غيره من الكائنات الحية.

(120) الإوانة: بالكسر، من مياه بني عقَيل بنجد. ياقوت الحموي، معجم البلدان 327:1.

(121) ديوانه: 264 – 265.

(122) المصدر السابق: 265.

(123) المصدر السابق: 265.

(124) الشهلاء: من مياه بني عمرو بن كلاب. ياقوت الحموي، معجم البلدان 428:3.

(125) ديوانه: 266.

(126) المصدر السابق: 266.

(127) المصدر السابق: 268 – 270.

(128) المصدر السابق: 271. إن هذه النهاية التي انتهى إليها الذئب من الظفر والمرح، والتي ساقته إلى منهل الماء ليشرب منه مع ما تدل عليه هذه النهاية نجدها في أحد النماذج على نحو يقرب منها، إذ أتى الشاعر على ذِكْر الماء فيه ليدل على معنى الحيوية والنشاط، وذلك في سياق الوصف وتشبيه سرعة الناقة بسرعة حمار الوحش، فقد جعل هذا الحمار في غاية العطش أيام القيظ، ليصل به إلى نوع من الصراع مع نفسه، وهو يترقب انصراف الوراد عن الحوض ليشرب منه، فلما نزل الليل خالفهم وشرب من الحوض، لأن مياه الغدران قد نضبت، شرباً أعاد له – على قلّته – حيويته ونشاطه، فأخذ يقطع الأراضي ويجوز المرتفعات. انظر المصدر السابق: 167 – 169 (الأبيات 16، 20 – 24).

(129) الماء العِد: ماء العيون والآبار.

(130) المصدر السابق: 133.

(131) القبائض: مصانع لبني قَبيصة، وهي ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها. انظرالبكري، معجم ما استعجم: 1047، وياقوت الحموي، معجم البلدان 344:4، وابن منظور، لسان العرب:(صنع).

(132) الكَرع: ماء السماء.

(133) ديوانه: 134.

(134) الذنابين: رواه البكري (معجم ما استعجم: 616) " الذنانِين" بفتح الذال، ونون بعد الألف، وهو ماء من مياه ماوِية باليمن، وقال: " وقد رأيت من ضبطه بكسر أوله ". وماوية: ماء ببطن فَلْج على ست مراحل من البصرة، مشهور بعذوبة مائه، وقال البكري: " ويقال أيضاً: ماويهِ ". (المصدر السابق: 1178 – 1179، وانظر ابن منظور، لسان العرب: موا)، ورواه البكري أيضاً (المصدر السابق: 895 – 896) على الرواية الثانية " مأويه "، وفسره أنه: ماء لبني العنبر ببطن فَلْج. وفسر ياقوت (معجم البلدان 57:5) " ماوية " بهذا التفسير الأخير، ورواه في (54:5) في هذا البيت " ماوانة ". والنزع: جمع نَزوع ونَزيع، وهي البئر القريبة القعر تنزع دلاؤها بالأيدي لقربها، ويبدو أنه يوجد أكثر من ماء في الذنابين، لأنه قال النزع بالجمع.

(135) ديوانه: 135.

(136) الملاويح: جمع المِلْواح، وهي المرأة السريعة العطش، وذلك من النعمة.

(137) كما يفهم من سبب رحيلهم عن الديار.

(138) المصدر السابق: 137، والكلام كناية عن زمن الشدة والضيق حيث يقلّ الطعام ويعز القوت.

(139) المحاضر: جمع محضر، وهو رجوع العرب إلى أعداد المياه التي يكون لهم قرار عندها، وذلك في شهور القيظ.

(140) المصدر السابق: 133.

(141) المصدر السابق: 133.

(142) المصدر السابق: 134.

(143) انظر مثل هذه النتيجة في المصدر السابق: 172 – 173، 174 – 175 (الأبيات 15 – 19، 31 – 33) عندما قابل بين الصورة التي رسمها للمطي وهن يتنازعن دلاء الماء من شدة العطش، وبين الصورة التي رسمها لعطائه وكرمه في زمن الشدة والضيق.

(144) المصدر السابق: 138 – 139. وآل شهاب: قد يكونون بني شهاب من بني عِدِي من قبائل الرباب. ابن دريد، الاشتقاق: 187.

(145) المصدر السابق: 123 – 124 (الأبيات 1 – 10).

---

(146) انظر تعليق أبي جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 28، وحسنين، في الشعر الجاهلي: 36 – 37 عن موقف الشاعر من مقدرات قبيلته، وما تتطلبه منه كأداة من أدواتها في الدفاع عن وجودها الحيوي، وعن واجب الفرد تجاه قبيلته، وحقوق قبيلته عليه، ومن ثَمّ إشارته إلى الفخر الذي يفخره الشاعر إنما يستمده من محيطه القبلي.

(147) ديوانه: 124 – 125 (الأبيات 11 – 13).

(148) في الفخر بالنفس وبالقوم، ووصف القداح، ولعب الميسر، والوصف، والحديث عن فتوة الشباب بحيث تتضمن القصيدة الواحدة موضوعات متعددة، وليس موضوعاً واحداً.

(149) عده ابن سلاّم الجمحي في الطبقة الخامسة من فحول الجاهلية بعد خِداش بن زهير والأسود بن يعفُر والمخبل السعدي. انظر طبقات فحول الشعراء: 143.

(150) انظر رأي العلماء في شعره، المصدر السابق: 150، وابن قتيبة، الشعر والشعراء: 333 – 334، وثعلب، مجالس ثعلب: 413، والعسكري، المصون: 169، والمرزباني، الموشح: 100، وابن رشيق، العمدة 97:1، والسيوطي، المزهر 482:2، وحداداً، ديوان ابن مقبل دراسة لغوية: 5 – 9، 11 – 13.

(151) انظر ديوانه: 31 – 33 (الأبيات 7 – 27)، وأبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 66 – 67، وقد اتبع في تحليل الأبيات التحليل التقليدي المعروف في الرثاء أنه مدح للميت.

(152) عسفان: قرية جامعة بين مكة والمدينة، كثيرة الآبار والحياض، وهي لبني المصطلِق من خُزاعة، وقيل: عسفان منْهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة. انظر البكري، معجم ما استعجم: 942 – 943، وياقوت الحموي، معجم البلدان 137:4.

(153) ديوانه: 30، وانظر تعليقنا في الحاشية التالية.

(154) انظر بالإضافة إلى النموذج التالي المصدر السابق: 99، 102 (الأبيات 1 – 4، 18) إذ ربط الشاعر المياه بالطلل لشوقه إلى بعث الحياة فيه من جديد، بعد أن تركه أهله بسبب الحروب التي قامت فيه، وقد مهد الشاعر للحديث عن الغارة منذ البيت (12)، انظر الأبيات التي قالها فيها من البيت (12 – 18)، ص: 101 – 102، وانظر نموذجاً آخر ص: 147 – 148، 150 – 153(الأبيات 1 – 2، 5 – 6، 20 – 31، 34 – 35، 38 – 40، 46) بتأويل مشابه للتأويل السابق، إذ كان بعض فخر الشاعر بقومه في مجال الحرب.

(155) المصدر السابق: 59.

(156) أسود: قد يكون اسم جبل كما يفْهم من القصيدة، وربما أراد الشاعر به الجبل المعروف بـ " أسود العين "، وهو من جبال ضرية. البكري، معجم ما استعجم: 151، وانظر الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (سود).

(157) انظر البكري، معجم ما استعجم: 238. فقد ذكره على هذا النحو دون تفاصيل أخرى.

(158) ديوانه: 58 – 59.

(159) المصدر السابق: 58.

(160) الحوالب: حوالب الوادي، وهي روافده التي تصب فيه. وعرد: مال عنها.

(161) المصدر السابق: 59.

(162) الولَه: ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن أو الخوف، وقيل: ذهاب العقل لفقدان الحبيب.

(163) انظر قصيدته التي يخاطب فيها الحرة في المصدر السابق: 69 – 70 (الأبيات 1 – 10)، وص: 109 – 110 (الأبيات 14 – 16) وغيرها مما مضى في البحث.

(164) وقد صرح بذلك هو انظر ديوانه: 74 (البيتان 27 – 28) إذ كان يتمنّى لو أن السلوة والنسيان تشفيانه مما يعتري قلبه من الذكرى، وأبا جارور، تميم بن أبي بن مقبل حياته وشعره: 65.